كيف تكون مؤمناً

من تفسير الإمام الحافظ ابن كثير
(٧٠١ - ٧٧٤ هـ)

اعداد وتعليق : نشأت المصرى

المختار الإسلامي
للطبع والنشر والتوزيع
١٦ شارع كامل صدقي بالفجالة
القاهرة ت ٩١١٣٧١

كيف تكون مؤمناً ؟

من تفسير الإمام الحافظ ابن كثير

(٧٠١ - ٧٧٤ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم
كذلك حقا علينا ننجِ المؤمنين
(صدقَ الله العظيم)

إهـــداء

إلى والدىّ الكريمين وفضلهما الذى لا يحد

المقدمـــة

منهج الكتاب :

الإيمان ...

غاية تهفو إلى ذراها السامقة كل نفس حتى النفوس التى حرمت نعمة الإيمان تشرئب إليه خجلة من آثامها طامعة أن ينعم الله عليها بالتوبة .

وعلى طريق الإيمان سار الكثيرون ، وإلى طريق الإيمان يتطلع الكثيرون فى كل زمان ومكان ، ويلعب الشيطان لعبته ليباعد بين الناس وبين فطرتهم التى تنادى بالإيمان وتهرع إليه عندما يخفت صوت الشيطان وتضمحل سطوته ويأذن المولى عز وجل بالهداية .

وحول الإيمان وعنه وفيه نزلت آيات ودارت أحاديث نبوية وقيلت كلمات وتأملات .

وهذا الكتاب « كيف تكون مؤمناً » ؟ يجتهد فى البحث عن مفاتيح الإيمان من واقع الدستور الإلهى للحياة والآخرة - الذى لا يتبدل - القرآن الكريم ، عسى أن نختصر الطريق إلى الإيمان ونثبت عليه ونرتقى أعاليه بمشيئة الله .

وقد آثرت أن يتم ذلك عن طريق مصدر واحد هو كتاب « تفسير القرآن العظيم » للحافظ بن كثير لما رأيته فى هذا التفسير من إحاطة كبيرة بجوانب ذلك الموضوع تجمع بين حديث السابقين من الرواة والمفسرين -

خاصة الإمام الطبرى - وبين رأى ابن كثير الذى يكتفى فى مناسبات عديدة بما ورد عن غيره .

وحتى استخلص موضوع كتابنا من ثنايا كتاب تفسير ابن كثير الضخم لجأت إلى ما يلى :

= الالتزام بالتفسير الذى عقب به ابن كثير على الآيات والأحاديث وأقوال السابقين - إن وجد هذا التعقيب - دون تدخل منى بالحذف أو الإضافة فيما عدا بعض فقرات الاستهلال أو الربط الضرورية لتحقيق تسلسل الموضوعات ، وفقا للترتيب الجديد الذى قمت به ، وقد تم وضع هذه الفقرات المضافة بين القوسين [ ] وكذلك الفقرات الأخرى التى ليس مصدرها تفسير القرآن العظيم ..

= تم ترتيب الموضوعات بحيث يكتمل تسلسلها ، كما تم وضع عناوين فرعية ملائمة تسهيلا للقارئ وحاولت فى وضع عنوان الكتاب (كيف تكون مؤمناً) أن يتلاءم مع مضمونه ..

= اضطررت فى شروح الآيات إلى إسقاط بعض ما ورد من تفسيرات وأقوال الآخرين - غير ابن كثير - لمنع التكرار أو إذا كانت محل اعتراض ابن كثير لسبب أو لآخر .

= فيما يختص بالعنعنات الواردة فى مقدمة الأحاديث النبوية اكتفيت بذكر اسم الراوى وأول المحدثين .

= الطبعة التى اعتمدت عليها من تفسير القرآن العظيم هى طبعة كتاب الشعب .

= لجأت فى تفسير الكلمات الصعبة إلى لسان العرب وتفسير الطبرى .

= تمت الاستعانة فى التمهيد وبقية الكتاب بعدد من المصادر فى مقدمتها الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية والإيمان للإمام الدكتور عبدالحليم محمود وعدد كبير من آثار « أقطاب الصوفية » .

ترجمة ابن كثير وآثاره :

هو إسماعيل بن عمر عماد الدين أبو الفداء بن الخطيب القرشى البُصْروى الشافعى : وهو مؤرخ عربى ولد عام ٧٠١ هـ - ١٣٠١ م فى دمشق ودرس فيها الحديث ولقى من الاضطهاد (مثل ما لقى أستاذه الحنبلى المشهور تقى الدين ابن تيمية . وابن كثير سلفى فى كتاباته وسنى فى نزعته وقال عنه الحافظ شمس الدين الذهبى - وكان من أساتذة ابن كثير « الإمام المفتى المحدث البارع ، فقيه المتن ، ومفسر نقال ، وله تصانيف مفيدة » . وقد انتهت إليه رئاسة العلم فى التاريخ والحديث والتفسير .

ومن مؤلفاته :

البداية والنهاية - شرح صحيح البخارى (ولم يكتمل) - أحكام التبيين - الاجتهاد فى طلب الجهاد - جامع المسانيد - الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث - طبقات الشافعية - مسند الشيخين (أبى بكر وعمر) - تفسير القرآن العظيم - التكميل فى معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل .

وفاته :

يقول المؤرخ ابن تغرى الأتابكى الظاهرى -- (٨١٢ - ٨٧٤) فى كتابه « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » يقول : توفى ابن كثير فى يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان سنة أربع وسبعين [فبراير ١٣٧٣ م] عن أربع وسبعين سنة .

وقد تم دفنه بجوار معلمه ابن تيمية بناء على وصيته رحمه الله وإيانا وإياكم .

تمهيــد

١ – كلمة الإيمان (لغويا)

الإيمان .. ضد الكفر ، والإيمان بمعنى التصديق ، ضده التكذيب ، يُقال آمن به قوم وكذب به قوم .

والإيمان مصدر آمن يؤمن إيمانا فهو مؤمن ، وقد اتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق .

وقال ابن الأثير[1] : فى أسماء الله تعالى « المؤمن » هو الذى يَصْدُقُ عبادَهُ وعْدَهُ ، فهو من الإيمان التصديق ، أو يُؤْمِنُهُم فى القيامة عذابَ فهو من الأمان ضد الخوف .

وقال الزَّجَّاج[2] من الإيمان فقال : الإيمان إظهار الخضوع والقبول للشريعة ولما أتى به النبى ﷺ ، واعتقاده وتصديقه بالقلب ، فمن كان على هذه الصفة فهو مؤمن مسلم غير مرتاب ولا شاك ، وهو الذى يرى أن أداء الفرائض واجب عليه لا يدخله فى ذلك شك .

٢ – التعريف بالإيمان :

فى كلمة جامعة جاء فى الحديث الشريف : « **الإيمان : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره** »[3] . وهذا هو أساس الإيمان .

وقد جعل النبى ﷺ الدين ثلاث درجات : أعلاها الإحسان ، وأوسطها الإيمان ، ويليه الإسلام ، فكل محسن مؤمن ، وكل مؤمن مسلم ، وليس كل مؤمن محسنا ، ولا كل مسلم مؤمنا[4] .

وفى أحاديث أخرى يقترن الإيمان بالأمانة فى الحفاظ على أموال المسلمين وجهاد النفس وأهوائها وجهاد الكافرين – فى سبيل الله – يقول ﷺ **« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه على دمائهم وأموالهم ، والمهاجر من هجر السيئات ، والمجاهد من جاهد نفسه لله »**(٥) .

والحياء شعبة من الإيمان ، فقد مر الرسول عليه الصلاة والسلام على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه فى الحياء فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : **« دعه فإن الحياء من الإيمان »**(٦) .

وحب المرء لرسول الله من ملامح الإيمان فقد قال عليه الصلاة والسلام : **« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين »**(٧) .

والمؤمن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه – يقول عليه الصلاة والسلام : **« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »** ..

فالإيمان يشع فى القلب حبا للناس ، وحب الناس يجعل إفشاء السلام عادة للقلب واللسان : يقول صلوات الله عليه وسلامه :

« والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شئ إذا فعلتموه تحاببتم ؟ : أفشوا السلام بينكم »(٨) .

ومما ورد بالكتاب والسنة تعرف أن الذى يؤذى جاره ليس بمؤمن ، وأن الذى يشبع وجاره جائع ليس بمؤمن ، وأن قيام ليلة القدر من الإيمان ، والانفاق وتطوع قيام رمضان وصومه إيمانا واحتسابا من الإيمان ، والصلاة من الإيمان حتى نصل إلى إبعاد الأذى عن الطريق ..

ويتكامل معنى الإيمان فى قلوبنا عندما نطالع صفات المؤمنين فى آيات الله البينات .. يقول تعالى :

﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن

ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعونَ والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾[٩] .

وهو القائل جل جلاله :

﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾[١٠] .

٣ - الفرق بين الإسلام والإيمان :

لا خلاف بين القدماء والمحدثين على أن الإيمان هو تصديق بالقلب لكن اختلف بعض علماء الكلام فى مدى ارتباط هذا التصديق القلبى بالعمل أو مدى إيجابية تأثير الإيمان فيما هو حول الإنسان وفى مواقفه فى الحياة . فهل الإيمان شعور داخلى سلبى ، وهل يكتفى بتصديق القلب كمعيار له ! لا يطل التساؤل .. لأننا نجد الجواب اليقين فى كتاب الله وسنة رسوله الكريم .. وتدلنا كنوز الآيات والأحاديث الشريفة التى تناولت الإيمان والمؤمنين على أن الإيمان حركة وفعل وإيجابية كبيرة تؤثر فى الحياة وتشارك فى صنع ملامحها - إلى جوار رسوخه فى القلب ، وكيف نتصور غير ذلك وأساس الإيمان هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره .

أما الإسلام فهو يعرف بأعمدته الخمسة قال عليه الصلاة والسلام :

« بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان وحج البيت »[١١] ،

ويقول الإمام الدكتور عبدالحليم محمود[١٢] : إن كلمة الإسلام التى وضعت اسما للدين عند الله ، الدين الذى لا يقيده زمن ، ولا يحده مكان تتضمن فى مفهومها الكريم المعانى الأخلاقية السامية ، فإنها تعنى إسلام الوجه لله ، وتتسع لأقصى ما يتطلبه الذاهب المجد فى السير إلى الله . لقد سئل رسول

الله ﷺ عن الإسلام فقال صلوات الله وسلامه عليه : « **أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك** » .

وفى أحاديث أخرى فسر النبى ﷺ الإسلام بالأعمال الظاهرة فيما فسرّ الإيمان بالأصول الخمسة ، وبذلك يكون الإيمان درجة أعلى .. لهذا إذا ذكر اسم الإيمان وحده ، فهو يتضمن معنى الإسلام وشروطه ، وقد عَلّق الله تعالى دخول الجنة والنجاة من العذاب بالإيمان وذلك فى آيات عديدة .

ولأن الإسلام علانية ، والإيمان فى القلب كما جاء فى الحديث النبوى الشريف ، فمن الطبيعى أن يتم ترجمة ما فى القلب إلى فعل وتصرف بالضرورة ، وإلا كان ما يحتويه القلب ضعيفا مهزوزا لا يرتقى إلى مستوى الإيمان .

إن سلوك المرء فى حياته يفصح عما يضمه قلبه وما يستقر فى مشاعره الباطنة ولا انفصال بين هذا وذاك حتى لو تدخلت أمور خارجية تحاول أن تبدل السلوك الإنسانى بالإكراه ؛ فآثار الصراع تبدو واضحة لكل ذى بصر ، وكثيراً ما يفشل الإكراه فى حجب التطابق بين الشعور والتصرف وفقاً لاختلاف الأشخاص والأزمنة .

وقد يرد على الخاطر سؤال يقول : هل هناك إسلام بلا الإيمان ؟ يطلعنا القرآن الكريم أن هناك إسلاماً بلا إيمان ، ففى سورة الحجرات : ﴿ **قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا** ﴾[١٣] .

٤ – موقع الإيمان وحدوده

لقد جعل النبى ﷺ الإيمان فى الوسط بين درجات الدين كما جعل الإيمان شُعَبا : قال عليه الصلاة والسلام : « **الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة ، أفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان** »[١٤] .

وأضعف الإيمان هو جهاد القلب – الصامت – قال عليه الصلاة والسلام : « **من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان** »[١٥] .

ويشير ابن تيمية إلى أن الإيمان يذكر تارة مفردا غير مقرون باسم الإسلام ولا باسم العمل صالح ولا غيرهما ، وتارة يذكر مقرونا إما بالإسلام وإما بالذين أوتوا العلم ، ويذكر أيضا لفظ المؤمنين مقرونا بالذين هادوا والنصارى والصابئين فيقول تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَنْ آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[١٦] ومعناه أن من كان من أهل هذه الأديان معتقدا بالله وكتبه ورسله ، ومنهم محمد ﷺ ، وعاملا بما أمر به من الصالحات ، فهو من الناجين[١٧] .

وإذا ذكر اسم الإيمان مجرداً دخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة كقوله فى حديث الشُّعَبْ وكذلك سائر الأحاديث التى يجعل فيها أعمال البر من الإيمان ..

والإيمان ليس كماً ثابتاً أو صورة واحدة ، فيقول أبو هريرة : الإيمان يزيد وينقص ، فهو إذن درجات متفاوتة ، وقد قال بعض الصحابة والتابعين : تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً .

وتظل عيوننا وعقولنا وقلوبنا معلقة على أمل أن نصل إلى ذروة الإيمان حتى يصبح جبالاً راسخة سامقة تسمو بها النفس وتعلو ولا تهتز ، وقد قيل لبعض السلف : يزداد الإيمان وينقص ؟ قال نعم يزداد حتى يصير أمثال الجبال ، وينقص حتى يصير أمثال الهباء .

٥ – الإيمان عند العلماء

كان الإيمان ولايزال انطلاقاً من المدلول القرآنى وما ورد فى شأنه فى السنة المطهرة ، كان باباً محبوباً يطرقه الصالحون وعلماء الدين والفقهاء فيتحدثون فيه ويفيضون ، ويضمنونه انفعالهم بمشاعر الإيمان فيمتد بهم القول

ويمتد ، ويجتهدون فى تفسير المعنى وفى إطلاق تصوراتهم وعواطفهم حول « الإيمان » ، وقد نجد فى قول بعضهم ما يمس جانباً من الإيمان دون بقية الجوانب ، وفى قول آخر ما يعبر عن جانب آخر منه ، وهكذا لا يتعارض قول مع قول بل تتكامل الكلمات مع المعنى الشامل وتشكله فى نفس الوقت .. ونستمتع بتلك الاشراقات النفسية الإيمانية التى تكشف ما يحسه الآخرون ممن ألقى الإيمان فى نفوسهم ، وهذا زاد طيب لمن يقرأ وزاد أطيب لمن ينفعل ويحسن التلقى .

يقول الإمام على – كرم الله وجهه : الإيمان على أربع دعائم : على الصبر ، واليقين ، والعدل ، والجهاد ، والصبر منها على أربع شعب : على الشوق والشَّفَق (أى الخوف) ، والزهد ، والترقب : فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ؛ ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات ؛ ومن زهد فى الدنيا استهان بالمصيبات ؛ ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات . واليقين منها على أربع شعب : على تبصرة الفطنة ، وتأوّل الحكمة (أى الوصول إلى دقائقها) ، وموعظة العبرة ، وسنّة الأولين . فمن تبصر فى الفطنة تبينت له الحكمة ، ومن تبينت له الحكمة عرف العبرة ، ومن عرف العبرة فكأنما كان فى الأولين .

والعدل منها (من دعامة الإيمان) على أربع شعب : على غائص الفهم ، وغور العلم ، (أى سره) ، وزُهْرة الحكم ، ورساخة الحِلم ، فمن فهم عَلِم غور العلم ، ومن علم غور العلم صدر عن شرائع الحكم ، ومن حلُم لم يفرط فى أمره وعاش فى الناس حميداً .

والجهاد منها (من دعامة العلم) على أربع شعب : على الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والصدق فى المَوَاطن (مواطن القتال فى سبيل الله) ، وشنآن الفاسقين (أى كرههم) : فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين ، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف الكافرين ؛ ومن صَدَق فى المَوَاطن قضى ما عليه ، ومن شنِئ الفاسقين وغضِب لله ، غضب الله له وأرضاه يوم القيامة .

وفى إجابة أخرى عن معنى الإيمان يقول الإمام على رضى الله عنه : الإيمان معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان .

ويقول بشر بن الحارث الحافى[١٨] – القطب الصوفى : عز المؤمن استغناؤه عن الناس ، وشرفه قيامه بالليل ..

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : الإيمان نَزِهٌ (أى عفة) فإذا أذنب العبد فارقه ومنه الحديث : إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظلة فإذا أقلع رجع إليه الإيمان .

وحيث يعرف الإيمان بما يصدر عن صاحبه يقول الشيخ القطب عبدالسلام بن حشيش[١٩] :

« حدد بصر الإيمان [أى انظر بعيون الإيمان] تجد الله فى كل شئ ، ومع كل شئ ، وفوق كل شئ ، وقريبا من كل شئ ، ومحيطا بكل شئ ، بقرى هى وصفه ، وبإحاطة هى نعته .

وقد سئل سهل بن عبدالله التُسترى[٢٠] عن الإيمان ما هو ؟ فقال هو قول وعمل ونية وسنّة ، لأن الإيمان إذا كان قولا بلا عمل ، فهو كفر ، وإذا كان قولا وعملا بلا نية فهو نفاق ، وإذا كان قولا وعملا ونية بلا سنة فهو بدعة .

٦ – من بشائر الإيمان

اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد في النار أحد ممن فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، واتفقوا أيضا على أن نبينا ﷺ يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته .

ويؤكد شيخ الإسلام ابن تيمية[٢١] – مطمئنا أهل الإيمان أنه إذا ذهب بعض إيمانهم لسبب أو لآخر فهذا لا يضيع الإيمان كله ويرفض قول القائل بأن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله مبينا أن هذا هو الأصل الذى تفرّعت عنه البدع فى الإيمان .

ويلتقى قول ابن تيمية مع ما دونه الإمام البخارى عن الإيمان بأنه « قول وفعل يزيد وينقص » وبهذا قال الكثير من أئمة الأمة ..

وتلك هى بشرى لمن آمن إيمانا لم يكتمل بعد وحافزا له على تعميق هذا الإيمان ومجاهدة النفس وصولا إلى مرتبة الإيمان الكامل . فيشهد كل فجر جديد فى عمرنا إضافة عزيزة إلى بهجة الإيمان .

نسأل الله جميعا أن يجعلنا من أهل الإيمان وأن يضئ نفوسنا بنوره وأن ترى عيوننا بوهجه وأن تنبض قلوبنا بدفئه الشامل ، وأن يكون حديثنا وفعلنا انبثاقا منه وتأكيدا له .. اللهم .. آمين .

نشأت شوق المصرى
ح . القبة ١ يناير ١٩٨٨
فى ١١ جماد أول ١٤٠٨

الباب الأول

صلة الله بعباده
وضرورة الإيمان

١ - الله الخالـق

أطوار الخلق

﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾(٢٢)

- صدق الله العظيم -

ينبه تعالى على تنقل الإنسان فى أطوار الخلق حالا بعد حال ، فأصله من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم يصير عظاما ، ويُنفخ فيه الروح ، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفا نحيفا واهن القوى ، ثم يشب قليلا قليلا حتى يكون صغيرا ، ثم حَدَثا ، ثم مراهقا ، ثم شابا . وهو القوة بعض الضعف ، ثم يشرع فى النقص فيكتهل ، ثم يشيخ ثم يهرم ، وهو الضعف بعد القوة ، فتضعف الهمة والحركة والبطش وتشيب اللّمّة [أى الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن] ، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة ، ولهذا قال : **﴿ ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، يخلق ما يشاء ﴾** أى : يفعل ما يشاء ويتصرف فى عبيده بما يريد .

معجزة الحياة والموت :

ويقول تعالى : **﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرجعون ﴾**(٢٣) .

يقول تعالى محتجا [مقدما الحجة] على وجوده وقدرته ، وأنه الخالق المتصرف فى عباده : « كيف تكفرون بالله » أى : كيف تجحدون وجوده أو

تعبدون معه غيره ! « وكنتم أمواتا فأحياكم » أى : قد كنتم عدما فأخرجكم إلى الوجود ، كما قال تعالى : ﴿ **أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون ، أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون** ﴾ وقال : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا** ﴾ والآيات فى هذا كثيرة .

وعن ابن عباس أنه قال [أن معنى] « كنتم أمواتا فأحياكم » : أمواتا فى أصلاب آبائكم ، لم تكونوا شيئا حتى خلقكم ، ثم يميتكم موتة الحق ، ثم يحييكم حين يبعثكم . قال : وهى مثل قوله تعالى : ﴿ **أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين** ﴾[٢٤] : أى كنتم ترابا قبل أن يخلقكم فهذه ميتة ، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة ، ثم يميتكم فترجعون للقبور فهذه ميتة أخرى ، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى ، فهذه ميتتان وحياتان ، فهو كقوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم** ﴾ .. والصحيح ما تقدم عن ابن عباس .

معجزة خلق الكون :

ويقول تعالى : ﴿ **هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات وهو بكل شئ عليم** ﴾[٢٥] .

لما ذكر تعالى دلالة ممن خلقهم وما يشاهدونه فى أنفسهم ، ذكر دليلا آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض .

وقوله ﴿ **استوى إلى السماء** ﴾ أى : قصد إلى السماء .

وقوله : ﴿ **وهو بكل شئ عليم** ﴾ أى : وعلمه محيط بجميع ما خلق ، كما قال ﴿ **ألا يعلم من خلق** ﴾ وتفصيل هذه الآية فى سورة السجدة ..

وفى هذا دلالة على أنه تعالى ابتدأ بخلق الأرض أولا ، ثم خلق السماوات سبعا ، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك ، وقد صرح المفسرون بذلك .

وعن عبدالله بن سلام أنه قال : ان الله بدأ الخلق يوم الأحد ، فخلق الأرضين فى الأحد والاثنين ، وخلق الأقوات والرواسى فى الثلاثاء والأربعاء ، وخلق السموات فى الخميس والجمعة ، وفرغ فى آخر ساعة من يوم الجمعة ، فخلق فيها آدم على عجل ، فتلك الساعة التى تقوم فيها الساعة .

من نعم الله :

يقول تعالى : ﴿ **ولقد مكنّاكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون ، ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين** ﴾(٢٦) .

يقول تعالى ممتنا على عبيده فيما مكّن لهم من أنه جعل الأرض قراراً ، وجعل لها رواسى وأنهارا ، وجعل لهم فيه منازل وبيوتا ، وأباح لهم منافعها ، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها ، وجعل لهم فيها معايش أى : مكاسب وأسبابا يتجرون فيها ، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك (....) . والصواب الذى عليه الأكثرون [نطق كلمة معايش] بلا همز ، لأن معايش جمع معيشة من عاش يعيش عيشا .

ثم ينبه تعالى بنى آدم فى هذا المقام على شرف أبيهم آدم ، ويبين لهم [عداوة] عدوهم إبليس ، وما هو منطو عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة : إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾(٢٧) . وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب [أى : لازق] وصوّره بشرا ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة بالسجود له تعظيما لشأن الرب تعالى وجلاله ، فسمعوا كلهم وأطاعوا ، إلا إبليس لم يكن من الساجدين (...) والمراد بذلك كله آدم عليه السلام .

[وثمة آيات كثيرة تذكر الإنسان بنعم الله عليه فى نفسه وجسده

وحياته وأبنائه وما يملك من متع الدنيا وما سخر له فى الكون من حوله فى الأرض والسماء والبحار] .

يقول تعالى : ﴿ **وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون** ﴾(٢٨) يذكر الله تعالى نعمته على عباده فى أن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة وهى العقول والفهوم التى يدركون بها الأشياء ويعتبرون بما فى الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى ، وأنه الفاعل المختار لما يشاء .

[وهو القائل تبارك اسمه] : ﴿ **وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾(٢٩)

[والمعنى : أن الله] هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه فى جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم .

وقال بعض السلف [المقصود] من كل ما سألتموه وما لم تسألوه ويخبرنا الله تعالى عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها .

وقد روى فى الأثر أن داود عليه السلام قال : يا رب ! كيف أشكرك وشكرى لك نعمة منك علىّ ؟ فقال الله تعالى : الآن شكرتنى يا داود .. أى : حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم .

[وقرب الله تعالى من عباده هو من النعم الكبيرة ومن مبررات الثبات على الإيمان] .

يقول تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾(٣٠) .

يخبرنا تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه ، وعلمه محيط بجميع أموره ، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بنى آدم من الخير والشر ، وقد ثبت فى الصحيح [البخارى] عن رسول الله ﷺ – أنه قال : « **إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل** » . وقوله تعالى :

﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ يعنى ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه .

غاية الخلق :

[ويرتبط الإيمان بالله ارتباطا وثيقا بالغاية من الخلق وهى العبادة] يقول تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾(٣١) أى : إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتى ، لا لاحتياجى إليهم .

وعن ابن عباس أنه قال : « إلا ليعبدون » أى : إلا ليقروا بعبادتى طوعا أو كرها وهذا اختيار ابن جرير [الطبرى] .

٢ - الله الرحمن الرحيم

يقول تعالى فى سورة الفاتحة : ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾(٣٢) . وهما اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، ورحمن أشد مبالغة من رحيم وفى تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك ، كما [جاء] فى الأثر عن عيسى عليه السلام أنه قال : والرحمن رحمن الدنيا والآخرة ، والرحيم رحيم الآخرة .

وعن عبدالله بن عباس أنه قال : الرحمن : الفعلان من الرحمة ، وهو من كلام العرب ، وقال الرحمن الرحيم : الرقيق الرفيق بمن أحب أن يرحمه ، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه ، وكذلك أسماؤه كلها ..

[ومن فضل الله تعالى على الناس ورحمته بهم أنه يجيب دعوة الداعى ، وهل يدعو الله إلا من كان على إيمان به ؟]

يقول تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أُجيب دعوة الداعى إذا دعـان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشُدُون** ﴾(٣٣) .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾(٣٤) وكقوله لموسى وهارون عليهما السلام ﴿ **اننى معكما أسمع وأرى** ﴾(٣٥) .

والمراد من هذا أنه تعالى لا يخيب دعاء داع ، ولا يشغله عنه شئ ، بل هو سميع الدعاء . وفيه ترغيب فى الدعاء ، وأنه لا يضيع لديه تعالى – كما قال الإمام أحمد .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « **لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل قالوا : وكيف يستعجل ؟ قال : يقول : قد دعوت ربى فلم يستجب لى** » .

[ومن خلق المؤمن ألا يستعجل أو ييأس من رحمة ربه ، ولا ينقطع الأمل فى الله وإن ثقلت الذنوب فهو يقبل التوبة عن عباده] .

يقول تعالى : ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم** ﴾(٣٦) .

وهذه الآية تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحقها . وقال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه : ان الصدقة تقع فى يد الله عز وجل قبل أن تقع فى يد السائل ..

[لكن إلى أى حد يكون حظ التائب من المغفرة والرحمة ..] .. يقول تعالى : ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** »(٣٧) .

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها ، وإن كانت مهما كانت ، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر ، ولا يصح حمل هذه على غير توبة ، لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه . [وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للكفرة فكيف يكون الحال بالنسبة للمؤمنين] .

وعن ابن عباس أنه قال [فى هذه الآية] قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله ، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله ، ومن زعم أن عُزيرا ابن الله ، ومن زعم أن الله فقير ، ومن زعم أن يد الله مغلولة ، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة ، يقول الله تعالى لهؤلاء : ﴿ **أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم ؟** ﴾(٣٨) .

٣ – مشيئة الله فى خلقه

[من الإيمان بالله التسليم بمشيئة الله فى خلقه] .

● يقول تعالى : ﴿ **الله يبسُط الرزق لمن يشاء ويَقْدِر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع** ﴾[٣٨] .

يذكر تعالى أنه هو الذى يوسع الرزق على من يشاء ، ويقتره على من يشاء ، لما له فى ذلك من الحكمة والعدل ، وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا فى الحياة الدنيا استدراجا لهم وإمهالا (...) ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين .

قال رسول الله ﷺ : « **ما الدنيا فى الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم اصبعه هذه فى اليم** [أى البحر] ، **فلينظر بم ترجع . وأشار بالسبّابة** »[٣٩] .

● ويقول تعالى : ﴿ **يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم ، الذى خلقك فسوّاك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبّك** ﴾[٤٠] .

هذا تهديد لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب ؛ حيث قال (الكريم) ، حتى يقول قائلهم : غره كرمه . بل المعنى فى هذه الآية : ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم – أى العظيم – حتى أقدمت على معصيته ، وقابلته بما لا يليق ؟ (....) ان عمر سمع رجلا يقرأ : ﴿ **يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم** ﴾ ، فقال عمر : الجهل .

وقوله ﴿ **الذى خلقك فسوَّاك فعدلك** ﴾ أى : جعلك سوَيًا معتدل القامة منتصبها ، فى أحسن الهيئات والأشكال .

• ويقول تعالى : ﴿ **إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾[٤١] .

وهذا مثل قوله : ﴿ **وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم** ﴾[٤٢] ثم أمرهم بالتوكل عليه . [فالنصر مرهون بالمشيئة والتوكل] .

• [والمؤمن يبذل المال والنفس فى سبيل الله] .

يقول تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ...** ﴾[٤٣] .

يخبر تعالى أنه عاوض عبادة المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذا بذلوها فى سبيل الجنة ، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه ، فإنه قَبِل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له : ولهذا قال الحسن البصرى وقتادة : بايعهم والله فأغلى ثمنهم .

• [وإيمان المؤمن هو الآخر مرهون بإذن الله ومشيئته]

يقول تعالى : ﴿ **وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرّجس على الذين لا يعقلون** ﴾[٤٤] .

إن الله ﴿ **يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** ﴾[٤٥] و ﴿ **ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء** ﴾[٤٦] ﴿ **انك لا تهدى من أحببت** ﴾[٤٧] (....) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد ، الهادى من يشاء ، المضل لمن يشاء ، لعلمه وحكمته وعدله ..

٤ – الإيمان والإثم العظيم

لا إكراه فى الإيمان :

• يقول تعالى : ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تُكْرِه الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾[٤٨] .

[المعنى] : « ولو شاء ربك » – يا محمد – لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به ، فآمنوا كلهم ، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كما قال : ﴿ **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين : إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾(٤٩) .

وقال تعالى : ﴿ **أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا** ﴾(٥٠) ولهذا قال تعالى : ﴿ **أفأنت تكره الناس** ﴾ ، أي : تلزمهم وتلجئهم « حتى يكونوا مؤمنين » . أي : ليس ذلك عليك ولا إليك .

الغفران والمشيئة :

● يقول تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يُشرَك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما** ﴾(٥١) .

أي : لا يغفر – الله تعالى – لعبد لقيه وهو مشرك به ، ويغفر ما دون ذلك من الذنوب لمن يشاء من عباده .

وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة ، فلنذكر منها ما تيسر : قال رسول الله ﷺ : « **الدواوين عند الله ثلاثة : ديوان لا يعبأ الله به شيئا ، وديوان لا يترك الله منه شيئا ، وديوان لا يغفره الله ، فأما الديوان الذى لا يغفره الله فالشرك بالله ، قال الله عز وجل : ﴿ انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ﴾ . وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئا فظلم العبد لنفسه [فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه ، أو صلاة تركها ، فإن الله يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء] وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئا فظلم العباد بعضهم بعضا ؛ القصاص لا محالة** » .

حديث آخر : عن أبى إدريس قال سمعت معاوية يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **كل ذنب عسى الله أن يغفره ، إلا الرجل يموت كافرا ، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا** »(٥٢) .

حديث آخر : قال أبو ذر : « **أتيت رسول الله ﷺ فقال : ما من عبد قال : لا إله إلا الله . ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق . ثلاثا ، ثم قال فى الرابعة : على رغم أنف أبى ذر** »[٥٣] .

المجادلــون :

● قال تعالى : ﴿ **ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض ، وأسبغ عليكم نِعَمهُ ظاهرة وباطنة . ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** ﴾[٥٤] .

يقول تعالى منبها خلقه على نعمه عليهم فى الدنيا والآخرة بأنه سخر لهم ما فى السموات من نجوم يستضيئون بها فى ليلهم ونهارهم ، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد ، وجعله إياها لهم سقفا محفوظا ، وما خلق لهم فى الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار ، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، وإزاحة الشُّبه والعلل ، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم ، بل منهم من يجادل فى الله : أى : فى توحيده وإرسال الرسل . ومجادلته فى ذلك بغير علم ولا مستند من حجة صحيحة ، ولا كتاب مأثور صحيح مبين يضئ .

وهو القائل جل جلاله : ﴿ **هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير** ﴾[٥٥] .

أى : هو الخالق لكم على هذه الصفة ، وأراد منكم ذلك ، فلا بد من وجود مؤمن وكافر ، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال ، وهو شهيد على أعمال عباده ، وسيجزيهم بها أتم الجزاء ولهذا قال : ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ .

الباب الثانى
الطريق إلى الإيمان

١ – من صفات المؤمنين

ما هو الإيمان :

[الطريق إلى الإيمان .. نستدل عليه بما وقر فى القلب وما بدا من سلوكيات ، وكلما كان حظنا من صفات المؤمنين وافرا كنا على الطريق الصحيح إلى إيمان قوى ، ومما جاء فى سورة البقرة :]

قال تعالى : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البِرّ من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** ﴾(٥٦) .

اشتملت هذه الآية الكريمة ، على جمل عظيمة ، وقواعد عميمة ، وعقيدة مستقيمة :.

وقد جاء رجل إلى أبى ذر ، فقال :

ما الإيمان ؟

فقرأ عليه هذه الآية : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم** ﴾ حتى فرغ منها .

فقال الرجل : ليس عن البر سألتك .

فقال أبو ذر : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عما سألتنى عنه ، فقرأ عليه هذه الآية ، فأبى أن يرضى كما أبيت أن ترضى فقال له رسول الله ﷺ وأشار بيده :

« المؤمن إذا عمل حسنة سرّته ورجا ثوابها ، وإذا عمل سيئة أحزنته وخاف عقابها »(٥٧) .

وأما الكلام على تفسير هذه الآية فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولا بالتوجه إلى بيت المقدس ، ثم حوّلهم إلى الكعبة ، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين ، فأنزل الله تعالى بيان حكمته فى ذلك ، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل ، وامتثال أوامره ، والتوجه حيثما وجه ، واتباع ما شرع فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل وليس فى لزوم التوجه إلى جهة من المشرق إلى المغرب بر ولا طاعة ، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه [فلابد من الالتزام بجوهر الأعمال وليس شكلياتها] .

الإيمان بالله وملائكته ورسله :

قال الثورى : (ولكن البر من آمن بالله) – إلى آخر الآية – وهذه أنواع البر كلها – وصدق رحمه الله – فإن من اتصف بهذه الآية ، فقد دخل فى عُرىَ الإسلام كلها ، وأخذ بمجامع الخير كله ، وهو الإيمان بالله وهو أنه لا إله إلا هو وصدّق بوجود الملائكة الذين هم سفرة [أى سفراء] بين الله ورسله .

(والكتاب) وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء ، حتى ختمت بأشرفها ، وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب ، الذى انتهى إليه كل خير ، واشتمل على كل سعادة فى الدنيا والآخرة ، ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله ، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

الصــدقة :

وقوله تعالى : ﴿ **وآتى المال على حبه** ﴾ أى : أخرجه ، وهو محب له ، راغب فيه .. كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة مرفوعا :

أفضل الصدقة أن تَصدَّق وأنت صحيح شحيح ، تأمل الغنى ، وتخشى الفقر .

وقال تعالى : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا** ﴾(٥٨) .

وقال تعالى : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾(٥٩) .

وقوله : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾(٦٠) .
(وهنا) نمط آخر أرفع من هذا وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه ، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له .

وقوله (ذوى القربى) وهم قرابات الرجل ، وهم أولى من أعطى من الصدقة ، كما ثبت فى الحديث : الصدقة على المساكين صدقة ، وعلى ذوى الرحم ثنتان : صدقة وصلة . فهم أولى الناس بك وببرك وإعطائك وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم فى غير موضع من كتابه العزيز .

(واليتامى) هم : الذين لا كاسب لهم ، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب .

(والمساكين) وهم : الذين لا يجدون ما يكفيهم فى قوتهم وكسوتهم وسكناهم ، فيعطون ما تُسَدّ به حاجتهم .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **ليس المسكين بهذا الطوّاف الذى تَردُه التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يُفْطَن له فيُتَصدقَ عليه** » .

(وابن السبيل) وهو : المسافر المجتاز الذى قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله إلى بلده ، وكذا الذى يريد سفرا فى طاعة ، فيعطى ما يكفيه فى ذهابه

وإيابه ، ويدخل فى ذلك الضيف ، عن ابن عباس أنه قال :
ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين .

(والسائلين) وهم : الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات .

قال رسول الله ﷺ : « **للسائل حق وإن جاء على فرس** »[٦١] .

الصـــبر :

وقوله تعالى : ﴿ **والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس** ﴾ أى : فى حال الفقر ، وهو البأساء ، وفى حال المرض والأسقام وهو الضراء .

(وحين البأس) أى : فى حال القتال والتقاء الأعداء وانما نُصب (الصابرين) على المدح والحث على الصبر فى هذه الأحوال لشدته وصعوبته ، والله أعلم ، وهو المستعان وعليه التكلان .

صدق الإيمان :

وقوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين صدقوا** ﴾
أى : هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا فى إيمانهم ، لأنهم حققوا الإيمان القلبى بالأقوال والأفعال ، فهؤلاء هم الذين صدقوا (وأولئك هم المتقون) لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات .

[وقال تعالى فى سورة المؤمنون] :

﴿ **قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ﴾[٦٢] .

قال عمر بن الخطاب : كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحى ، يسمع عند وجهه كدوىّ النحل فمكثنا ساعة ، فاستقبل القبلة ورفع يديه ، فقال « **اللهم ، زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وارضنا ، ثم قال : لقد نزلت على عشر آيات ، من أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ : (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم العشر** »[٦٣] .

وقال النسائى فى تفسيره :... [قيل] لعائشة : يا أم المؤمنين ، كيف كان خُلُق رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان خُلق رسول الله ﷺ القرآن ، فقرأت : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ ، حتى انتهت إلى : ﴿ **والذين هم على صلواتهم يحافظون** ﴾ ، قالت : هكذا كان خلق رسول الله ﷺ .

الكـــرم :

عن أنس رضى الله عنه قال[٦٤] : قال رسول الله ﷺ : خلق الله جنة عدن بيده ، لبنة من دُرّة بيضاء ، ولبنة من ياقوتة حمراء ، ولبنة من زَبر جَدَة خضراء ، ملاطها المسك [أى طلاء حوائطها المسك] ، وحصباؤها [أى حجارتها الصغيرة] اللؤلؤ ، وحشيشها الزعفران ، ثم قال لها : انطقى . فقالت : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ ، فقال الله : وعزتى وجلالى لا يجاورنى فيك بخيل : ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ **ومن يُوقَ شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾[٦٥] : فقوله تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ : أى : قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح ، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف .

الصلاة الخاشعة :

﴿ **الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ : عن ابن عباس خاشعون : خائفون ساكنون .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه : الخشوع : خشوع القلب .

وقال الحسن البصرى : كان خشوعهم فى قلوبهم ، فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا الجناح .

وقال محمد بن سيرين : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة : فلما نزلت هذه الآية : ﴿ **قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ ، خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم .

والخشوع فى الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها ، واشتغل بها عما عداها ، وآثرها على غيرها ، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين ، كما قال النبى ﷺ « **حُبّب إلىّ الطيب والنساء ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة** »(٦٦) [وقال] : **يا بلال ، أرحنا بالصلاة**(٦٧) .

الإعراض عن اللغو

وقال تعالى : ﴿ **والذين هم عن اللغو معرضون** ﴾ أى : عن الباطل ، وهو يشمل الشرك كما قال بعضهم - والمعاصى - كما قال آخرون - ومالا فائدة فيه من الأقوال والأفعال ، كما قال تعالى : ﴿ **وإذا مروا باللغو مروا كراما** ﴾(٦٨) .

الزكـــاة :

وقوله تعالى : ﴿ **والذين هم للزكاة فاعلون** ﴾

الأكثرون [يقولون] أن المراد بالزكاة ها هنا زكاة الأموال مع أن هذه الآية مكية ، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة فى سنة اثنتين من الهجرة ، والظاهر أن التى فرضت بالمدينة إنما هى ذات النّصب والمقادير الخاصة ، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبا بمكة ، كما قال تعالى فى سورة الأنعام وهى مكية : ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ .

وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ها هنا زكاة النفس من الشرك والدنس ، كقوله : ﴿ **قد أفلح من زكاها : وقد خاب من دساها** ﴾(٦٩) ، وكقوله : ﴿ **وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة** ﴾(٧٠) : على أحد القولين فى تفسيرها ، وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا ، وهو زكاة

النفوس وزكاة الأموال ؛ فإنه من جملة زكاة النفوس ، والمؤمن الكامل هو الذى يتعاطى هذا وهذا . والله أعلم .

حفظ الفروج :

وقوله تعالى : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون** ﴾ .
أى : والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام ، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لواط ، ولا يقربون سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم ، وما ملكت أيمانهم من السرارى ، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج ، ولهذا قال : ﴿ **فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك** ﴾ : أى : غير الأزواج والإماء . ﴿ **فأولئك هم العادون** ﴾ ، أى : المعتدون .

وقد استدل الإمام الشافعى – رحمه الله – ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم** ﴾ ، قال : فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين .

الأمانة والعهد :

وقوله تعالى : ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾ ، أى : إذا أؤتمنوا لم يخونوا ، بل يؤدونها إلى أهلها : وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك ، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : « **آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان** »[٧١] .

المحافظة على الصلاة :

وقوله تعالى : ﴿ **والذين هم على صلواتهم يحافظون** ﴾ ، أى : يواظبون عليها فى مواقيتها ، كما قال ابن مسعود : سألت النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله ، أى العمل أحبّ إلى الله ؟ قال : الصلاة فى وقتها . قلت : ثم أى ؟ قال : برّ الوالدين : قلت : ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله[٧٢] وقيل [فى معنى الآية] : تعنى مواقيت الصلاة .

وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة [الواردة فى الآيات العشر السابقة] بالصلاة ، واختتمها بالصلاة ، فدل على أفضليتها كما قال رسول الله ﷺ : « **استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن** »[٧٣] [ومعنى استقيموا ولن تحصوا : استقيموا فى كل شئ حتى لا تميلوا ، ولن تطيقوا الاستقامة] .

ولما وصف الله تعالى المؤمنين بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال : ﴿ **أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ﴾ . وقال ﷺ : « **إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجرّ أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن** »[٧٤] .

[وقيل] : الجنة بالرومية هى الفردوس . ولا يسمى البستان فردوسا إلا إذا كان فيه عنب . فالله أعلم .

الإيمان بالغيب :

وقال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾[٧٥] .

قيل : الإيمان التصديق .

وعن ابن عباس : يؤمنون : يصدقون .

وقيل : الإيمان : العمل .

وقيل : يؤمنون : يخشون .

أما الإيمان فى اللغة فيطلق على التصديق المحض ، وقد يستعمل فى القرآن ، والمراد به ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ **يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين** ﴾[٧٦] .

وكما قال إخوة يوسف لأبيهم : (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) .

وكذلك إذا استعمل مقرونا مع الأعمال ، كقوله : ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ فأما إذا استعمل مطلقا فالإيمان الشرعى المطلوب لا

يكون إلا اعتقادا وقولا وعملا ، هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة بل حكاه الشافعى وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعا ، ان الإيمان قول وعمل يزيد وينقص وقد ورد فيه آثار كثيرة ، ومنهم من فسّره بالخشية .

وأما الغيب المراد هنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه ، وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد .

[وقيل] (يؤمنون بالغيب) أى : يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وجنته وناره ولقائه ، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث ، فهذا غيب كله .

[وقيل] : أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة ، وأمر النار ، وما ذكر فى القرآن .

وعن ابن عباس : (بالغيب) : بما جاء منه : مِنَ الله تعالى .

[وقيل] الغيب : القرآن .

يؤمنون بالغيب ، أى : بغيب الإسلام .

يؤمنون بالغيب ، أى : بالقدر .

وكل هذه متقاربة فى معنى واحد ، لأن جميع هذه المذكورات من الغيب الذى يجب الإيمان به .

وقال أبو جمعة : تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح ، فقال : يا رسول الله هل أحد خير منا ؟ أسلمنا وجاهدنا معك . قال : نعم ، قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى .

الانفــاق :

قال تعالى : ﴿ **ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[٧٧] .

قيل : (ومما رزقناهم ينفقون) هى نفقة الرجل على أهله ، وهذا قبل أن تنزل الزكاة .

وعن الضحاك : كانت النفقات قربات يتقربون بها إلى الله على قدر ميسرتهم وجهدتهم ، حتى نزلت فرائض الصدقات : سبع آيات فى سورة التوبة ، مما يذكر فيهن الصدقات ، هن الناسخات المثبتات [أى التى ثبت حكمها ولم ينسخ] .

وقال قتادة : (ومما رزقناهم ينفقون) فأنفقوا مما أعطاكم الله ، هذه الأموال عوارىّ [وهو ما يعار ثم يسترد] وودائع عندك يا ابن آدم ، يوشك أن تفارقها .

واختار ابن جرير أن الآية عامة فى الزكاة والنفقات ، فإنه قال : وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم : أن يكونوا لجميع اللازم لهم فى أموالهم مؤدين ، زكاة كان ذلك أو نفقة من لزمته نفقته ، من أهل أو عيال وغيرهم ، ممن تجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك ؛ لأن الله تعالى عم وصفهم ومدحهم بذلك ، وكل من الانفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه .

قلت : كثيرا ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والانفاق من الأموال : فإن الصلاة حق الله وعبادته ، وهى مشتملة على توحيده والثناء عليه ، وتمجيده والابتهال إليه ، ودعائه والتوكل عليه ؛ والانفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدى إليهم ، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك ، ثم الأجانب ، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل فى قوله تعالى : ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ ولهذا ثبت فى الصحيحين عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « **بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت** » والأحاديث فى هذا كثيرة .

الهجرة والجهاد :

يقول تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ..** ﴾(٧٨) .

ذكر تعالى أصناف المؤمنين [في عهد الرسول ﷺ] وقسمهم إلى مهاجرين : خرجوا من ديارهم وأموالهم ، وجاءوا لنصر الله ورسوله ، وإقامة دينه ، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك . وإلى أنصار وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك ، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم وواسوهم في أموالهم ، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم ، فهؤلاء ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد ، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، كل اثنين إخوان ، فكانوا يتوارثون بذلك إرثا مقدما على القرابة حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث ثبت ذلك في صحيح البخاري [وغيره] .

كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ، وقال :
« **اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال – فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكف عنهم :**

ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، واعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين ، وأن عليهم ما على المهاجرين – فإن أبوا واختاروا دارهم فاعلمهم أنهم يكونوا كأعراب المسلمين ، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم فإن أبوا فاستعن بالله ثم قاتلهم »(٧٩) .

وقوله تعالى : ﴿ **وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، والله بما تعملون بصير** ﴾(٨٠) .

المعنى : وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب ، الذين لم يهاجروا في قتال ديني ، على عدو لهم فانصروهم ، فإنه واجب عليكم نصرهم ، لأنهم إخوانكم في الدين ، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار (بينكم وبينهم ميثاق) أي : مهادنة إلى مدة ، فلا تخفروا ذمتكم ، ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم(٨١) .

[ولا شك أن ميدان الهجرة والجهاد لا يزال متاحاً لكل مؤمن مسلم في هذا العصر وفي كل عصر ضد الملاحدة وأعداء الدين في كل بقعة من بقاع الأرض] .

يقول تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يَرْجون رحمة الله والله غفور رحيم** ﴾[٨٢] .

وقوله : ﴿ **والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾[٨٣] .

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا ، عطف بذكر ما لهم في الآخرة ، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان ، وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن ذنوب إن كانت ، وبالرزق الكريم ، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف ، دائم مستمر أبدا لا ينقطع ولا ينقضي ، ولا يُمَل لحسنه وتنوعه .

ذكر الله والتوكل عليه

يقول تعالى : ﴿ **واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغُدُو والآصال ولا تكن من الغافلين** ﴾[٨٤] .

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره ، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله : ﴿ **وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب** ﴾[٨٥] . وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء . وهذه الآية مكية وقال ها هنا بالغدو – وهو أوائل النهار .

والآصال : جمع أصيل ، كما أن الأيمان جمع يمين .

وأما قوله : (تضرعا وخيفة) ، أى : اذكر ربك فى نفسك رهبة ورغبة ، وبالقول لا جهرا ، ولهذا قال : (ودون الجهر من القول) . وهكذا يُستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء وجهرا بليغا ، ولهذا سألوا رسول الله ﷺ فقالوا :

أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾[٨٦] .

وقال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** ﴾[٨٧] .

قال ابن عباس : المنافقون لا يدخل قلوبهم شئ من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشئ من آيات الله ، ولا يتوكلون ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم . فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ ، فأدوا فرائضه - ﴿ **وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا** ﴾ أى : تصديقا ﴿ **وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ ، أى : لا يرجون غيره[٨٨] .

[وقيل] : (وجلت قلوبهم) ، فرقت : أى فزعت وخافت . وهذه صفة المؤمن حق المؤمن ، الذى إذا ذكر الله وجل قلبه ، أى : خاف منه ، ففعل أوامره ، وترك زواجره ، كقوله تعالى : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى** ﴾[٨٩] . ولهذا قال سفيان الثورى فى قوله تعالى ﴿ **وجلت قلوبهم** ﴾ : هو الرجل يريد أن يظلم - يهم بمعصية - فيقال له اتق الله فيجل قلبه .

وقوله تعالى ﴿ **وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا** ﴾ . كقوله : ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون** ﴾[٩٠] .

وقد استدل البخارى وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله فى القلوب ، كما هو مذهب جمهور الأمة .

﴿ **وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ ، أى : لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف فى الملك ،

وحده لا شريك له ، ولا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب . ولهذا قال سعيد بن جبير : التوكل على الله جماع الإيمان .

وقوله : ﴿ **الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ ، ينبه بذلك على أعمالهم ، بعدما ذكر اعتقادهم . وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها ، وهو إقامة الصلاة ، وهو حق الله تعالى .

والانفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة ، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب ، والخلق كلهم عباد الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه .

وعن الحارث بن مالك الأنصارى : أنه مر برسول الله ﷺ فقال له : كيف أصبحت يا حارث ؟

قال : أصبحت مؤمنا حقا ؛

قال : انظر ماذا تقول فإن لكل شئ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك .

فقال : عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها [أى يصيحون من الجوع والضرب] .

فقال : يا حارث ، عرفت فالزم ، ثلاثا[٩١] .

وقال الضحاك فى قوله تعالى ﴿ **لهم درجات عند ربهم** ﴾ : أهل الجنة بعضهم فوق بعض ، فيرى الذى هو فوق فضله على الذى هو أسفل منه ، ولا يرى الذى هو أسفل أنه فُضّل عليه أحد .

ولهذا جاء فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال :

« **إن أهل عليّين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق من آفاق السماء . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء ، لا ينالها غيرهم ؟ فقال : بلى ، والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين** »[٩٢] .

الشكر على النعم :

قال تعالى : ﴿ **ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما** ﴾[93] .

يقول الله مخبرا عن غناه عما سواه ، وأنه انما يعذب العباد بذنوبهم : ﴿ **ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم** ﴾ أى : أصلحتم العمل وآمنتم بالله ورسوله .

﴿ **وكان شاكرا عليما** ﴾ أى : من شكر شكر له ، ومن آمن قلبه به علمه ، وجازاه على ذلك أوفر الجزاء .

ويقول تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون** ﴾[94] .

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى ، وأن يشكروه على ذلك ، إن كانوا عبيده ، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة ، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة ، كما جاء فى الحديث .

ويقول تعالى : ﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غنى حميد** ﴾[95] .

اختلف السلف فى لقمان – عليه السلام – هل كان نبيا ، أو عبدا صالحا من غير نبوة ؟ على قولين ، الأكثرون على الثانى .

وقال ابن جرير : كان لقمان – عليه السلام – عبدا أسود غليظ الشفتين ، مصفح القدمين ، فأتاه رجل وهو فى مجلس أناس يحدثهم ، فقال له : ألست الذى كنت ترعى معى الغنم فى مكان كذا وكذا .

قال : نعم .

فقال : فما بلغ بك ما أرى ؟

قال : صدق الحديث ، والصمت عما لا يعنينى[96] .

فهذه الآثار منها ما هو مصرح فيه ينفى كونه نبيا ، ومنها ما هو مشعر بذلك ، لأن كونه عبدا قد مسّه الرق ينافى كونه نبيا ، لأن الرسل كانت تبعث فى أحساب قومها ، ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيا .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة** ﴾ ، أى : الفقه فى الإسلام ، ولم يكن نبيا ، ولم يوحَ إليه .

[وقيل الحكمة] أى الفهم والعلم والتعبير .

﴿ **أن اشكر لله** ﴾ أى : أمرناه أن يشكر الله – عز وجل – على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل الذى خصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه .

ثم قال تعالى : ﴿ **ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه** ﴾ أى : إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين ، لقوله تعالى : ﴿ **ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون** ﴾(٩٧) .

وقوله : ﴿ **ومن كفر فإن الله غنى حميد** ﴾ أى : غنى عن العباد ، لا يتضرر بذلك ، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعا ، فإنه الغنى عما سواه ، فلا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه .

ويقول تعالى : ﴿ **إن إبراهيم كان أُمَّةً قانتا لله حنيفا ولم يكُ من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم** ﴾(٩٨) .

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم ، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية ، فقال : ﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا** ﴾ .

فأما الأمة : فهو الإمام الذى يقتدى به .
والقانت : هو الخاشع المطيع .
والحنيف : المنحرف قصدا عن الشرك إلى التوحيد .
ولهذا قال : ﴿ **ولم يك من المشركين** ﴾ .

وقوله : ﴿ **شاكرا لأنعمه** ﴾ أى : قائما بشكر نعم الله عليه ، كما قال ﴿ **وإبراهيم الذى وفى** ﴾[٩٩] أى : قام بجميع ما أمر الله تعالى به .

وقوله : ﴿ **اجتباه** ﴾ أى : اختاره واصطفاه ، كما قال ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين** ﴾[١٠٠] .

ثم قال : ﴿ **وهداه إلى صراط مستقيم** ﴾ أى : جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه فى إكمال حياته الطيبة .

من أراد الآخرة :

يقول تعالى : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا** ﴾[١٠١] .

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له ، بل إنما يحصل لمن أراد الله ما يشاء .

وهذه (الآية) مقيدّة لإطلاق ما سواها من الآيات ، فإنه قال : ﴿ **عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم** ﴾ أى : فى الدار الآخرة ، ﴿ **يصلاها** ﴾ أى : يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ، ﴿ **مذموما** ﴾ أى : حال كونه مذموما على سوء تصرفه وصنيعه ، إذ اختار الفانى على الباقى ، ﴿ **مدحورا** ﴾ مبعدا حقيرا ذليلا مهانا .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « **الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له** »[١٠٢] .

وقوله : ﴿ **ومن أراد الآخرة** ﴾ أى : أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور .

﴿ **وسعى لها سعيها** ﴾ أى : طلب ذلك من طريقه ، وهو متابعة الرسول .

﴿ **وهو مؤمن** ﴾ أى : وقلبه مؤمن أى مصدق بالثواب والجزاء .

التسبيح ومخافة الله :

يقول تعالى : ﴿ **إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكروا بها خروا سجّدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون** ﴾(١٠٣) .

يقول تعالى : ﴿ **إنما يؤمن بآياتنا** ﴾ أى : إنما يصدق بها ﴿ **الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا** ﴾ أى : استمعوا لها وأطاعوها قولا وفعلا . ﴿ **وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون** ﴾ عن اتباعها والانقياد لها ، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة ، قال تعالى : ﴿ **إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين** ﴾(١٠٤) ثم قال تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ يعنى بذلك قيام الليل ، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة .

وقال الضحاك : هو صلاة العشاء فى جماعة ، وصلاة الغداء فى جماعة .

﴿ **يدعون ربهم خوفا وطمعا** ﴾ أى : خوفا من وبال عقابه وطمعا فى جزيل ثوابه .

﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ أى : فيجمعون بين فعل القرابات اللازمة والمتعدية . ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم فى الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ ، كما قال عبدالله بن رواحة رضى الله عنه:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الصبح ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى ، فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقعُ
يبيتُ يجافى جنبه عن فراشه ... إذا استثقلَتْ بالمشركين المضاجعُ

وعن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبى – ﷺ – فى سفر ، فأصبحت قريبا منه ، ونحن نسير ، فقلت : يانبى الله ، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار .

قال : لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسّره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان ، وتحج البيت .

ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟

الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل فى جوف الليل ، ثم قرأ : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ ، حتى بلغ ﴿ **يعملون** ﴾ .

ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه [أى أعلاه] ؟

فقلت : بلى ، يا رسول الله .

فقال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله .

ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله [أى ما به إحكام الشئ] ؟

فقلت : بلى ، يا نبى الله .

فأخذ بلسانه ثم قال : كفّ عليك هذا .

فقلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به .

فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يَكُبّ الناس فى النار على وجوههم – أو قال : على مناخرهم – إلا حصائد ألسنتهم(١٠٥) .

وقوله : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ أى : فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم فى الجنات من النعيم المقيم ، واللذات التى لم يطلع على مثلها أحد ، لمّا أخفوا أعمالهم أخفى الله لهم من الثواب ، جزاء وفاقا ، فإن الجزاء من جنس العمل .

السكينة :

قال تعالى : ﴿ **هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا**

إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما ﴾(١٠٦) .

يقول تعالى : ﴿ **هو الذى أنزل السكينة** ﴾ أى : جعل الطمأنينة .

وقال قتادة : الوقار فى قلوب المؤمنين . وهم الصحابة يوم الحديبية ، الذين استجابوا لله ولرسوله ، وانقادوا لحكم الله ورسوله ، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك ، واستقرت ، زادهم إيمانا مع إيمانهم .

وقد استدل بها البخارى وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان فى القلوب . ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين فقال : ﴿ **ولله جنود السموات والأرض** ﴾ أى : ولو أرسل عليهم ملكا واحدا لأباد خضراءهم ، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال ، لماله فى ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة والبراهين الدامغة . ولهذا قال : ﴿ **وكان الله عليما حكيما** ﴾ .

الرحمة :

يقول تعالى : ﴿ **ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة** ﴾(١٠٧) .

قوله ﴿ **ثم كان من الذين آمنوا** ﴾ أى : مؤمن بقلبه ، محتسب ثواب ذلك عند الله عز وجل .

وقوله : ﴿ **وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة** ﴾ أى : كان من المؤمنين العاملين صالحا ، المتواصين بالصبر على أذى الناس ، وعلى الرحمة بهم ، كما جاء فى الحديث : « **الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء** »(١٠٨) .

وفى الحديث الآخر : « **لا يرحم الله من لا يرحم الناس** » .

وقوله تعالى : ﴿ **أولئك أصحاب الميمنة** ﴾ أى : المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين .

المودة فى القربى :

يقول تعالى : ﴿ **ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حُسْناً إن الله غفور شكور** ﴾(١٠٩) .

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنة ، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات : ﴿ **ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أى : هذا حاصل لهم ، كائن لا محالة ، ببشارة الله لهم به .

وقوله : ﴿ **قل : لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى** ﴾ أى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش : لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالا تعطونيه ، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عنى ، وتذرونى [أى تدعونى] أبلغ رسالات ربى ، إن لم تنصرونى فلا تؤذونى بما بينى وبينكم من القرابة .

وعن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « **لا أسألكم على ما آتيكم من البينات والهدى أجرا ، إلا أن تُوَادو الله ، وأن تَقربّوا إليه بطاعته** »(١١٠) .

وهذا كأنه تفسير بقول ثان ، كأنه يقول « **إلا المودة فى القربى** » أى : إلا أن تعملوا بالطاعة التى تقربكم عند الله زلفى .

وقول ثالث ما معناه أن تودونى فى قرابتى ، أى : تحسنوا إليهم وتبروهم .

والحق تفسير الآية بما فسرها به الإمام ، وترجمان القرآن ، عبدالله بن عباس ، كما رواه عنه البخارى – ولا تنكر الوصاية بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم ، واحترامهم وإكرامُهم ، فإنهم من ذرية طاهرة ، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض ، فخرا وحسبا ونسبا ، ولاسيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية ، كما كان عليه سلفهم ، كالعباس وبنيه ، وعلى وأهل بيته وذريته ، رضى الله عنهم أجمعين .

عن العباس بن عبدالمطلب قال : قلت : يا رسول الله ، إن قريشا إذا لقى بعضهم بعضا لقوهم ببشر حَسَن ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها ؟ قال : فغضب النبى ﷺ غضبا شديدا ، وقال « **والذى نفسى بيده ، لا يدخل قلبَ الرجل الإيمانُ حتى يحبكم لله ولرسوله** »(١١١) .

وقال عمر بن الخطاب للعباس رضى الله عنهما : والله لإسلامك يوم أسلمتَ كان أحبّ إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ، لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب .

وعن جابر بن عبدالله قال : رأيت رسول الله ﷺ فى حجته يوم عرفة ، وهو على ناقته القصواء يخطب ، فسمعته يقول : « **يا أيها الناس ، إنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وعترتى : أهل بيتى** »(١١٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **إن الله غفور شكور** ﴾ ، أى : يغفر الكثير من السيئات ، ويكثر القليل من الحسنات ، فيستر ويغفر ، ويضاعف فيشكر .

التسليم بأمره واختياره تعالى :

قال تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قَضَى الله ورسوله أمرا أن يكونَ لهم الخِيرَةُ من أمرهم ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا** ﴾(١١٣) .

عن ابن عباس قال : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد ابن حارثة ، فاستنكفت منه [أى نفرت] ، وقالت : أنا خير منه حسبا – وكانت امرأة ذات حدّة – فأنزل الله عز وجل : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة** ﴾ .. الآية كلها(١١٤) .

وقيل نزلت [الآية] فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى مُعَيط ، وكانت أول من هاجر من النساء – يعنى بعد صلح الحديبية – فوهبت نفسها للنبى ﷺ ، فقال : قد قبلت . فزوجها زيد بن حارثة – يعنى والله أعلم بعد فراقه زينب – فسخطت هى وأخوها وقالا : إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوَجنَا

عبده ، قال : فنزل القرآن : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا** ﴾ .. إلى آخر الآية .

قال : وجاء أمرا جمع من هذا : ﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾ ، قال : فذاك خاص وهذا جماع [أى شامل] .

إن آية ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ..** ﴾ عامة فى جميع الأمور ، وذلك إنه إذا حكم الله ورسوله بشئ ، فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد ها هنا ولا رأى ولا قول ، كما قال تعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾(١١٥) .

وفى الحديث : « **والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به** » . ولهذا شدد فى خلاف ذلك ، فقال تعالى : ﴿ **ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا** ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾(١١٦) .

بعضهم أولياء بعض :

يقول تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم** ﴾(١١٧) .

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة ، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة ، فقال : ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ أى : يتناصرون ويتعاضدون ، كما جاء فى الصحيح : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وشبك بين أصابعه .

وفى الصحيح أيضا : ﴿ **مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم ، كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضوا تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر** ﴾ .

وقوله : ﴿ **يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ كما قال تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾(١١٨) .

وقوله تعالى : ﴿ **ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة** ﴾ أى : يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ، ﴿ **ويطيعون الله ورسوله** ﴾ أى : فيما أمر وترك ما عنه زجر ، ﴿ **أولئك سيرحمهم الله** ﴾ أى : سيرحمهم الله من اتصف بهذه الصفات .

﴿ **إن الله عزيز حكيم** ﴾ أى : عزيز ، من أطاعه أعزه ، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، ﴿ **حكيم** ﴾ فى قسمته هذه الصفات لهؤلاء وتخصيصه المنافقين بصفاتهم .. فإن له الحكمة فى جميع ما يفعله تبارك وتعالى .

التواضع والصفح :

يقول تعالى فى سورة الفرقان : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سُجَّدا وقياما ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مُستقرا ومُقاما ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قواما** ﴾(١١٩) ..

هذه صفات عباد الرحمن ﴿ **الذين يمشون على الأرض هونا** ﴾ أى : بسكينة ووقار من غير جَبَريّة [أى كبر] ولا استكبار ، كما قال ﴿ **ولا تمش فى الأرض مرحا ، إنك لا تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولا** ﴾(١٢٠) .
فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع تصنعا ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم – ﷺ – إذا مشى كأنما ينحط من صبب [أى منحدر] ، وكأنما الأرض تطوى له ، وقد كره بعض السلف المشى بتصنع ، حتى روى عن عمر أنه رأى شابا يمشى رويدا ، فقال : ما بالك .. أأنت مريض ؟

قال : لا ، يا أمير المؤمنين ، فَعَلاه بالدِّرة [أى ضربه بالدرة] ، وأمره أن يمشى بقوة .

والمراد بالهون هنا السكينة والوقار ، كما قال رسول الله ﷺ : « **إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا** »(١٢١) .

وقال الحسن البصرى فى هذه الآية : إن المؤمنين قوم ذُلُل ، ذلت منهم – والله – الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، وانهم لأصحاء ، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة . فقالوا :

الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم حزن الناس ، ولا تعاظم فى نفوسهم شئ طلبوا به الجنة ، أبكاهم الخوف من النار ، وإنه من لم يتعزّ بعزاء الله تَقَطَّعُ نفسُه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير لله نعمة إلا فى مطعم أو فى مشرب ، فقد قل علمه وحضر عذابه .

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ أى : إذا سفه عليهم الجهال بالسّئ ، لم يقابلوهم عليه بمثله بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيرا ، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما . وكما قال تعالى : ﴿ **وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا : لنا أعمالنا ، ولكم أعمالكم ، سلام عليكم ، لا نبتغى الجاهلين** ﴾(١٢٢) .

[وحدث أن سب رجل رجلا] فجعل الرجل المسبوب يقول : عليك السلام . فقال رسول الله ﷺ : « **أما إن ملكا بينكما يذب عنك** [**أى يدافع**] ، **كلما شتمك هذا قال له : بل أنت وأنت أحق به . وإذا قال له : عليك السلام ، قال : لا ، بل لك ، وأنت أحق به** »(١٢٣) .

وقيل فى معنى ﴿ **قالوا سلاما** ﴾ أى : سداد ، ردوا معروفا من القول ، حلماء لا يجهلون ، وإن جهل عليهم حلموا . يصاحبون عباد الله نهارهم بما تسمعون . أن يعلمهم خير دليل .

وقوله : ﴿ **والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما** ﴾ أى : فى عبادته وطاعته .

يخافون عذاب النار :

وقوله : ﴿ **والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما** ﴾ . أى ملازما دائما كما قال الشاعر [الأعشى] .

إنْ يعذب يكن غراما ، وإن يُعْـ ـطِ جزيلا ، فإنه لا يبالى

ولهذا قال الحسن فى قوله : (إن عذابها كان غراما) : كل شئ يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام اللازم ما دامت السماوات والأرض .

وقيل : ما نعموا فى الدنيا . ان الله سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه ، فأغرمهم فأدخلهم النار .

﴿ **إنها ساءت مستقرا ومقاما** ﴾ أى : بئس المنزل منظرا ، وبئس المَقيل مقاما .

[وقال] النبى ﷺ : **إن عبدا فى جهنم لينادى ألف سنة : يا حنان ، يا منان . فيقول الله لجبريل :**

- اذهب فآتنى بعبدى هذا .

فينطلق جبريل فيجد أهل النار منكبين يبكون ، فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره ، فيقول الله عز وجل :

- آتنى به فإنه فى مكان كذا وكذا .

فيجئ به فيوقفه على ربه عز وجل ، فيقول له :

- ياعبدى ، كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟

فيقول - يا رب ، شر مكان وشر مقيل .

فيقول [**الله تعالى**]

– **ردوا عبدى .**

فيقول : يا رب ، ما كنت أرجو إذا أخرجتنى منها أن تردنى فيها !

فيقول : دعوا عبدى(١٢٤) .

لا سرف ولا تقتير :

وقوله : ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** ﴾ أى : ليسوا بمبذرين فى إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون فى حقهم فلا يكفونهم ، بل عدْلا خيارا ، وخير الأمور أوسطها ، لا هذا ولا هذا .

(وكان بين ذلك قواما) ، كما قال ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا** ﴾(١٢٥) .

وقال النبى ﷺ : « **من فقه الرجل رفقه فى معيشته** »(١٢٦) .

وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله فهو سرف .

وقال غيره : السرف النفقة فى معصية الله .

وقال الحسن البصرى : ليس النفقة فى سبيل الله سرف .

لا قتل ولا زنا :

ويقول تعالى : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما** ﴾(١٢٧) .

سئل رسول الله ﷺ : أى الذنب أكبر ؟

قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك .

قال : ثم أىّ ؟

قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعَم معك .

قال : ثم أيّ ؟

قال : أن تزانى حليلة جارك .

قال عبدالله [ابن مسعود] : وأنزل الله تصديق ذلك ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ..** ﴾ إلى آخر الآية(١٢٨) .

وعن ابن عباس : أن أناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمدا ﷺ فقالوا :

– إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفاره –
فنزلت : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرّم الله إلا بالحق ، ولا يزنون** ﴾ . ونزلت : ﴿ **قل : يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا** ﴾ .

وقيل معنى (أثاما) أى : أودية فى جهنم يعذب فيها الزناة ، [أو : بمعنى] جزاء .

لا يشهدون الزور :

وقوله تعالى : ﴿ **والذين لا يشهدون الزور وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراما** ﴾(١٢٩) .

وهذه أيضا من صفات عباد الرحمن [المؤمنين] ، أنهم : ﴿ **لا يشهدون الزور** ﴾ قيل : هو الشرك وعبادة الأصنام . وقيل : الكذب والفسق ، واللغو ، والباطل . وقيل : شرب الخمر ..

وقيل المراد بقوله تعالى : ﴿ **لا يشهدون الزور** ﴾ أى : شهادة الزور ، وهى الكذب متعمدا على غيره ، كما فى الصحيحين عن أبى بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثا

قلنا : بلى ، يا رسول الله .

قال : الشرك بالله وعقوق الوالدين

وكان متكئا فجلس ، فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور فمازال يكررها ، حتى قلنا : ليته سكت .

والأظهر من السياق أن المراد : لا يشهدون الزور أى : لا يحضرونه ، ولهذا قال : ﴿ **وإذا مروا باللغو مروا كراما** ﴾ أى : لا يحضرون الزور ، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشئ ، ولهذا قال (مروا كراما) .

طاعة الزوج والذريّة :

وقوله تعالى : ﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين إماما** ﴾(١٣٠) .

يعنى الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له .

وقيل : يعنون من يعمل بالطاعة ، فتقر به أعينهم فى الدنيا والآخرة ، لم يريدوا بذلك صَباحة ولا جمالا ، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين ، وأن يرى الله العبد المسلم من زوجته ، ومن أخيه ، ومن حميمه طاعة الله .

وقوله ﴿ **واجعلنا للمتقين إماما** ﴾ أى : أئمة يقتدى بنا فى الخير .

وقيل : هداة مهتدين إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم ، وأن يكون هداهم متعديا إلى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر ثوابا ، وأحسن مآبا ، ولهذا ورد فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث :

ولد صالح يدعو له ،
أو علم ينتفع به بعده ،
أو صدقة جارية .

بر الوالدين :

قال تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا** ﴾(١٣١) .

يقول تعالى آمرا بعبادته وحده لا شريك له ، فإن القضاء ها هنا بمعنى الأمر .. وقرن بعبادته بر الوالدين أى وأمر بالوالدين إحسانا كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ **أن أشكر لى ولوالديك إلىّ المصير** ﴾(١٣٢) وقوله : ﴿ **إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما : أف** ﴾ [أى : لا تسمعهما قولا سيئا حتى ولا التأفيف الذى هو أدنى مراتب القول السئ] . [ولا تنهرهما] أى ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح .

ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح ، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن ، فقال : ﴿ **وقل لهما قولا كريما** ﴾ أى لينا طيبا حسنا بأدب وتوقير وتعظيم .

﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** ﴾ أى : تواضع لهما بفعلك .

﴿ **وقل : رب ارحمهما** ﴾ أى : فى كبرهما وعند وفاتهما ﴿ **كما ربيانى صغيراً** ﴾ .

قال ابن عباس : ثم أنزل الله : ﴿ **وما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركون ولو كانوا أولى قربى** ﴾(١٣٣) .

وقد جاء فى بر الوالدين أحاديث كثيرة .

قال مالك بن ربيعة الساعدى : بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال :

– يا رسول الله ، هل بقى علىّ من بر أبوى شئ بعد موتهما أبرهما به .

– قال : نعم خصال أربع : الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لا رحم لك إلا من قبلهما ، فهو الذى بقى عليك بعد موتهما من برهما(١٣٤) .

صلة الرحم ومصارف الإحسان :

وقال تعالى : ﴿ **وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا** ﴾(١٣٥) .

لما ذكر تعالى بر الوالدين [فى الآيات السابقة] ، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام كما فى الحديث : « **أمك وأباك ، ثم أدناك أدناك** » .

وفى الحديث : « **من أحب أن يبسط له رزقُه وينسأ** [**أى يؤخر**] **له فى أجله ، فليصل رحمه** »(١٣٦) .

ويقول تعالى : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجُنُبِ والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا** ﴾(١٣٧) .

[فى هذه الآية] عطف الله على الإحسان إلى الوالدين الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء ، كما جاء فى الحديث : « **الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم صدقة وصلة** »(١٣٨) ثم قال : (واليتامى) وذلك لأنهم قد فقدوا من يقوم بمصالحهم ، ومن ينفق عليهم ، فأمر الله بالإحسان إليهم والحنو عليهم .

ثم قال : (والمساكين) : فأمر الله بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم وتزول به ضرورتهم .

وقوله : ﴿ **والجار ذى القربى والجار الجنب** ﴾ الذى ليس بينك وبينه قرابة ، وقيل ﴿ **والجار ذى القربى** ﴾ يعنى : المسلم ﴿ **والجار الجنب** ﴾

يعنى اليهودى والنصرانى [وفى قول آخر] المرأة ، [وفى قول آخر] الرفيق فى السفر .

وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار .

قال رسول الله ﷺ : « **مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه** »(١٣٩) .

﴿ **والصاحب بالجنب** ﴾ قيل هى المرأة أو جليسك فى الحضر ورفيقك فى السفر وأما ﴿ **ابن السبيل** ﴾ فهو الذى يمر عليك مجتازا فى السفر .

وقوله ﴿ **وما ملكت أيمانكم** ﴾ وصية بالأرقاء لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير فى أيدى الناس ، ولهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصى أمته فى مرض الموت يقول « **الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم** » فجعل يرددها حتى ما يفيض بها لسانه(١٤٠) .

وقال النبى ﷺ « **للمملوك طعامه وكسوته ، ولا يكلَّف من العلم إلا ما يُطيق** »(١٤١) .

وقال النبى ﷺ : « **هم إخوانكم خوَلكم** [**أى ملككم وفى عهدتكم**] ، **جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم** »(١٤٢) .

الأخــوّة :

يقول تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوةٌ فاصلحوا بين أخويكمْ واتقوا الله لعلكم تُرحمون** ﴾(١٤٣) .

أى : الجميع أخوة فى الدين ، كما قال رسول الله ﷺ : « **المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه** »(١٤٤) .

وفى الصحيح : « **والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه** » .

والأحاديث فى هذا كثيرة .

وفى الصحيح : « **مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر** » .

وقوله : ﴿ **فأصلحوا بين أخويكم** ﴾ يعنى الفئتين المقتتلتين .

﴿ **واتقوا الله** ﴾ أى فى جميع أموركم ﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾ وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه .

لا لمز ولا تنابز :

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** ﴾(١٤٥) .

ينهى تعالى عن السخرية بالناس ، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم ، وهذا حرام ، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له ..

وقوله : ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ أى : لا تلمزوا الناس ، والهماز اللماز من الرجال مذموم ملعون . فالهمز بالفعل ، واللمز بالقول ، كما قال تعالى : ﴿ **هماز مشاء بنميم** ﴾(١٤٦) أى يحتقر الناس ويهمزهم طاغيا عليهم ويمشى بينهم بالنميمة وهى : اللمز بالمقال . ولهذا قال هنا : ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ أى لا يطعُن بعضكم على بعض .

وقوله ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ أى لا تتداعوا بالألقاب ، وهى التى يسوء الشخص سماعها .

وقال أبو جبيرة الضحاك : فينا نزلت فى بنى سلمة : ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ قال : قدم رسول الله ﷺ - المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دُعىَ أحدٌ منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله ، إنه يغضب من هذا ، فنزلت [الآية] .

وقوله : ﴿ **بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان** ﴾ أى بئس الصفة والاسم الفسوق وهو التنابز بالألقاب ، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون [أى يصف بعضهم بعضا] – بعدما دخلتم فى الإسلام وعقلتموه .

لا تجسس ولا غيبة :

يقول تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم** ﴾(١٤٧) .

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن ، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس فى غير محله ، لأن بعض ذلك يكون إثما محضا ، فليجتنب كثير منه احتياطا ، وروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – أنه قال : « ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرا ، وأنت تجد لها فى الخير محملا » .

وقال رسول الله ﷺ : « **إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا** »(١٤٨) .

وقال الرسول ﷺ : « **إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم ، أو : كدت أن تفسدهم** »(١٤٩) .

وقال النبى ﷺ : « **إن الأمير إذا ابتغى الريبة فى الناس ، أفسدهم** »(١٥٠) .

ولا تجسسوا : أى : على بعضكم بعضا ، والتجسس غالبا يُطلق فى الشر ، ومنه الجاسوس ، وأما التحسس فيكون غالبا فى الخير ، وقد يستعمل كل منهما فى الشر .

وقوله : ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضا** ﴾ : فيه نهى عن الغيبة ، وقد فسرها الشارع كما جاء فى الحديث :

قيل : يا رسول الله ، ما الغيبة ؟

قال : ذكرك أخاك بما تكره .

قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟

قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهتّه(١٥١) [أى قلت عليه ما لم يفعله] .

والغيبة محرمة بالإجماع ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رَجَحَتْ مصلحته ، كما فى الجرح [أى الكسب أو رد روايات بعض الرواة لعدم الوثوق بها] والتعديل والنصيحة ، كقوله ﷺ لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر : « **ائذنوا له ، بئس أخو العشيرة** »(١٥٢) .

وكقوله لفاطمة بنت قيس وقد خطبها معاوية وأبو جهم : « أما معاوية فصُعلوك [أى فقير] ، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه [أى كثير الضرب](١٥٣) وكذا ما جرى مجرى ذلك . ثم بقيتها على التحريم الشديد ، وقد ورد فيها الزجر الأكيد ، ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت .

وقال النبى ﷺ فى خطبة الوداع : « **إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا** »(١٥٤) .

وقال النبى ﷺ : « **يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته** »(١٥٥) .

قال جمهور العلماء : إن طريق المغتاب للناس فى توبته أن يُقلع عن ذلك ، ويعزم على أن لا يعود . وهل يشترط الندم على ما فات ؟ فيه نزاع . كما أن على المغتاب أن يتحلل من الذى اغتابه ؟

وقال آخرون : لا يشترط أن يتحلل من الذي اغتابه فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه ، فطريقه إذا أن يثنى عليه بما فيه

فى المجالس التى كان يذمها ، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته ، فتكون تلك بتلك ، كما قال الإمام أحمد :

قال النبى ﷺ : « **من حمى مؤمنا من منافق يعيبه بعث الله إليه ملكا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى مؤمنا بشئ يريد شينه [أى يعيبه به] حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال** » .

وقال رسول الله ﷺ : « **ما من امرئ يخذل امرءًا مسلما فى موضع تُنتهك فيه حُرمته ويُنتَقص فيه من عرْضه ، إلا خذله الله فى مواطن يحب فيها نصرته . وما من امرئ ينصر امرأ مسلما فى موضع يُنتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته ، إلا نصره الله فى مواطن يحب فيها نصرته** »(١٥٦) .

لا خمر ولا قمار

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون** ﴾(١٥٧) .

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن تعاطى الخمر والميسر ، وهو القمار ، وقد ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال : الشطرنج من الميسر وقالوا : كل شئ من القمار فهو من الميسر ، حتى لعب الصبيان بالجوز ، وكل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو من الميسر .

وقال رسول الله ﷺ : « **من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله** »(١٥٨) [معنى النرد عند العامة لعب الطاولة] .

وأما الشطرنج فقد قال عبدالله بن عمر : إنه شر من النرد ، ونص على تحريمه مالك وأبو حنيفة ، وأحمد ، وكرّهه الشافعى رحمهم الله تعالى .

وأما الأنصاب فهى حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها .

وأما الأزلام فقالوا هى قداح [أى سهام] كانوا يستقسمون بها .

وقوله (رجس من عمل الشيطان) أى سخط واثم وشر من عمل الشيطان (فاجتنبوه) : أى اتركوه (لعلكم تفلحون) وهذا ترغيب .

ثم قال تعالى ﴿ **إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة ..** ﴾ إلى آخر الآية وهذا تهديد وترهيب .

[ومن] الأحاديث الواردة فى تحريم الخمر :

عن عمر بن الخطاب أنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال : اللهم بيّن لنا فى الخمر بيانا شافيا . فنزلت هذه الآية التى فى البقرة : ﴿ **ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير** ﴾ ، فدُعىَ عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بيّن لنا فى الخمر بيانا شافيا . فنزلت الآية فى سورة النساء : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** ﴾ . فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى : أن لا يقربن الصلاة سكرانُ ، فدعى عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا . فنزلت [الآية] التى فى المائدة ، فدعى عمر ، فقرئت عليه فلما بلغ : ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ قال عمر : انتهينا(١٥٩) .

وقد ثبت فى الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال فى خطبته على منبر رسول الله ﷺ : « **أيها الناس ، إنه نزل تحريم الخمر وهى من خمسة : من العنب ، والتمر ، والعسل ، والحنطة ، والشعير والخمر ما خامر العقل** »(١٦٠) [أى استعبد العقل] .

وقال رسول الله ﷺ : « **لعنت الخمر على عشرة وجوه : لعنت الخمر بعينها وشاربها ، وساقيها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وآكل ثمنها** »(١٦١) .

وقال رسول الله ﷺ : « **كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام : ومن شرب الخمر فمات وهو يُدْمنها لم يتب لم يشربها فى الآخرة** »(١٦٢) .

عن النبى ﷺ أنه قال : « **لا يدخل الجنة منان ، ولا عاق والديه ، ولا مدمن خمر** »(١٦٣) .

وقال عثمان بن عفان : اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث ، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس ، فَعَلَقته امرأة غَويّه ، فأرسلت إليه جارتها فقالت : إنا ندعوك لشهادة . فدخل معها ، فطفقت [أى راحت] كلما دخل بابا أغلقته دونه ، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام ، وباطية خمر [أى إناء خمر] ، فقالت : إنى والله ما دعوتك لشهادة ولكنى دعوتك لتَقَع علىّ أو تقتل هذا الغلام ، أو تشرب هذا الخمر . فسقته كأسا ، فقال : زيدونى ، فلم يَرم حتى وقع عليها ، وقتل النفس . فاجتنبوا الخمر فإنها لا تجتمع هى والإيمان أبدا إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه .

وعن رسول الله ﷺ أنه قال : « **لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق سرقة حين يسرقها وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن** »(١٦٤) .

٢ - نوافـذ الإيمـان

السماء والأرض :

[تأمل الكون والكائنات بعمق يؤدى إلى الإيمان ويؤكده ويؤيده فهو بحق نافذة إليه ، وهو فى نفس الوقت من طباع المؤمنين الصادقين] .

قال تعالى : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار** ﴾(١٦٥) .

معنى الآية أنه يقول تعالى : ﴿ **إن فى خلق السماوات والأرض** ﴾ أى هذه فى ارتفاعها واتساعها ، وهذه فى انخفاضها وكثافتها وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيم من كواكب سيارات ، وثوابت وبحار ، وجبال وقفار ، وأشجار ونبات وزروع وثمار ، وحيوان ومعادن ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص .

﴿ **واختلاف الليل والنهار** ﴾ أى : تعاقبها وتبادلهما الطول والقصر ، فتارة يطول هذا ويقصر هذا ، ثم يعتدلان ، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذى كان قصيرا ، ويقصر الذى كان طويلا ، وكل ذلك تقدير العزيز الحكيم ، ولهذا قال : ﴿ **لآيات لأولى الألباب** ﴾ أى : العقول التامة الذكية التى تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها ، وليسوا كالصم البُكْم الذين لا يعقلون الذين قال الله فيهم : ﴿ **وكأين من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ .

ثم وصف تعالى أولى الألباب فقال : ﴿ **الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم** ﴾ كما ثبت فى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال : صل قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنبك . أى لا يقطعون ذكره فى جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم . ﴿ **ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض** ﴾ أى : يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته ، وعلمه وحكمته ، واختياره ورحمته .

وقال سفيان بن عيينه : الفكرة نور يدخل قلبك .

إذا المرء كانت له فكرةٌ ففى كل شئ له عبرةُ

وقال لقمان الحكيم : إن طول الوحدة ألهم للفكرة ، وطول الفكرة دليل على طرق باب الجنة .

وقال عمر بن عبدالعزيز : الكلام بذكر الله ، عز وجل ، حَسَن ، والفكرة فى نعم الله أفضل العبادة .

وعن ابن عباس أنه قال : ركعتان مقتصدتان فى تفكر ، خير من قيام ليلة والقلب ساه .

وقال بشر الحافى : لو تفكر الناس فى عظمة الله تعالى لما عصوه .

وقيل : إن ضياء الإيمان ، أو نور الإيمان ، التفكر .

وأنشد الحسين بن عبدالرحمن :

نزهة المؤمن الفِكَرْ لذة المؤمن العِبَرْ
نحمد الله وَحْده نحن كل على خطر
رب لاهٍ وعُمْره قد انقضى وما شعر
رب عيش قد كان فو ق المُنَى مُونقَ الزَّهَر
فى خرير من العيو ن وظل من الشجر
وسرور من النبا ت وطيب من الثمر
غيرَّتْه وأهلَهُ سرعةُ الدهر بالغِيَرْ

نحمــــد الله وحــــده إن فى ذا لمعـــــتبر
إن فى ذا لعبرة للبـــيب إن اعتَبـــرَ

وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته ، ومدح عباده المؤمنين : ﴿ **الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض** ﴾ قائلين : ﴿ **ربنا ما خلقت هذا باطلا** ﴾ أى : ما خلقت هذا الخلق عبثا ، بل بالحق لتجزى الذين أساءوا بما عملوا ، وتجزى الذين أحسنوا بالحسنى . ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا : ﴿ **سبحانك** ﴾ عن أن تخلق شيئا باطلا ﴿ **فقنا عذاب النار** ﴾ أى يا من خلق الخلق بالحق والعدل ، يا من هو منزه عن النقائص والعيب والعبث ، قنا من عذاب النار بحولك وقوتك وقيّضنا لأعمال ترضى بها عنا ، ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم ، وتجيرنا به من عذابك الأليم .

من آيات الخلق :

يقول تعالى : ﴿ **إن فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين ، وفى خلقكم وما يَبُث من دابة آيات لقوم يوقنون ، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون** ﴾(١٦٦) .

يرشد تعالى خلقه إلى التفكر فى آلائه ونعمه ، وقدرته العظيمة التى خلق بها السماوات والأرض ، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع ، من الملائكة والجن والإنس ، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات ، وما فى البحر من الأصناف المتنوعة ، واختلاف الليل والنهار ، فى تعاقبهما دائبين لا يفتران ، هذا بظلامه وهذا بضيائه ، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر فى وقت الحاجة إليه ، وسماه رزقا لأن به يحصل الرزق ، ﴿ **فأحيا به الأرض بعد موتها** ﴾ أى : بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شىء .

وقوله : ﴿ **وتصريف الرياح** ﴾ أى : بحرية وبرية ، ليلية ونهارية ، ومنها ما هو للمطر ، ومنها ما هو للقاح ، ومنها ما هو غذاء الأرواح ، ومنها ما هو عقيم ..

وقال أولا : ﴿ **لآيات للمؤمنين** ﴾ ثم ﴿ **يوقنون** ﴾ ثم ﴿ **يعقلون** ﴾ ، وهو نزق [أى ارتقاء] من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى .

الطـــير

يقول تعالى : ﴿ **أو لم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾(١٦٧) .

نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض ، كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض ، فى جو السماء ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى ، الذى جعل فيها قوى تفعل ذلك ، وسخر الهواء يحملها ويسر الطير لذلك .

التســخير :

يقول تعالى : ﴿ **والأنعام خلقها لكم فيها دف ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جَمَال حين تُريحون وحين تَسْرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم** ﴾(١٦٨) .

يمتن الله تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام ، وهى الابل والبقر والغنم ، كما فصلها فى سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج ، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون ، ومن ألبانها يشربون ، ويأكلون من أولادها ، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة .. وتحمل أثقالكم وهى الأحمال المثقلة التى تعجزون عن نقلها وحملها ، ﴿ **إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس** ﴾ وذلك فى الحج والعمرة والغزو

والتجارة ، وما جرى مجرى ذلك تستعملونها فى أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل .

ويقول تعالى : ﴿ **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون** ﴾ .

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده ، يمتن به عليهم وهو الخيل والبغال والحمير التى جعلها للركوب والزينة بها ، وذلك أكبر المقاصد منها ، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر استدل من استدل من العلماء – ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل – بذلك على ما ذهب إليه فيها كالإمام أبى حنيفة رحمه الله ، لأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير ، وهى حرام ، كما ثبتت به السنة النبوية وذهب إليه أكثر العلماء .

لكن لا يقام ما ثبت فى الصحيحين عن جابر بن عبدالله قال : « **نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية ، وأذن فى لحوم الخيل** »(١٦٩) .

ويقول تعالى : ﴿ **هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تُسيمون ، يُنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾ .

﴿ **لكم منه شراب** ﴾ أى جعله عذبا زلالا ، يسوغ لكم شرابه ولم يجعله ملحا أجاجا .

﴿ **ومنه شجر فيه تسيمون** ﴾ أى : وأخرج لكم به شجرا ترعون فيه أنعامكم .

وقوله ﴿ **ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات** ﴾ أى : يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد ، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها ولهذا قال : ﴿ **إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾ أى دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله .

ثم قال تعالى : ﴿ **وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وما ذرأ لكم فى الأرض**

مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يَذَّكرون ﴾ .

ينبه تعالى عباده على آياته العظام ومننه الجسام ، فى تسخيره الليل والنهار يتعاقبان ، والشمس والقمر يدوران ، والنجوم الثوابت والسيارات ، فى أرجاء السماوات نورا وضياء للمهتدين بها فى الظلمات ، وكل منها يسير فى فَلَكِهِ الذى جعله الله تعالى فيه ، يسير بحركة مُقدرة ، لا يزيد عنها ولا ينقص منها ، والجميع تحت قهره و سلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره ، كما قال ﴿ **إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين** ﴾(١٧٠) ، ولهذا قال : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ ، أى : لدلالات على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم ، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه .

وقوله : ﴿ **وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه** ﴾ ، لمّا نبه سبحانه على معالم السماوات ، نبه على ما خلق فى الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة ؛ من الحيوانات والمعادن والنباتات [والجمادات] على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص ﴿ **إن ذلك لآية لقوم يذكرون** ﴾ أى آلاء الله ونعمه فيشكرونها .

ويقول تعالى فى سورة النحل أيضا : ﴿ **وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبَسونها وترى الفُلْك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكَّرون ، وأن تَعُدوا نعمة الله لا تُحْصوها إن الله لغفور رحيم** ﴾ .

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج ، ويمتن على عباده بتذليله لهم ، وتيسيرهم للركوب فيه ، وجعله السمك والحيتان فيه ، وإحلاله لحمها حيها وميتها ، فى الحل والإحرام ، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة ، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حلية يلبسونها ، وتسخيره البحر لحمل

السفن التى تمخره أى تشقه ، وقيل تمخر الرياح ، وكلاهما صحيح وقد هداهم الله إلى ذلك إرثا عن أبيهم نوح عليه السلام ، فإنه أول من ركب السفن ، وله كان تعليم صنعتها ، ثم أخذها الناس عنه قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل ..

ثم ذكر تعالى الأرض ، وما جعل فيها من الرواسى الشامخات والجبال الراسيات ، لتقر الأرض ولا تميد : أى تضطرب بما عليها من الحيوان فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك ولهذا قال : ﴿ **والجبال أرساها** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وأنهارا وسبلا** ﴾ أى : وجعل فيها أنهارا تجرى من مكان إلى مكان آخر ، رزقا للعباد ، ينبع فى موضع وهو رزق لأهل موضع آخر ، فيقطع البقاع والبرارى والقفار ، ويخترق الجبال ، فيصل إلى البلد الذى سُخّر لأهله ، وهى سائرة فى الأرض يمنة ويسرة ، وجنوبا وشمالا ، وشرقا وغربا ، ما بين صغار وكبار ، وأودية تجرى حينا وتنقطع فى وقت .. بحسب ما أراد وقَدر ، وسخر ويسر ، فلا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

وكذلك جعل فى الأرض سبلا ، أى : طرقا يسلك فيها من بلاد إلى بلاد ، حتى أنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممرا ومسلكا .

[وما أكثر النعم والآيات التى تستوجب التأمل الطويل فى إعجاز خلقها ابتداء من البعوضة وأدنى منها إلى المجرات الهائلة فى الفضاء ثم معجزة خلق الإنسان وبناء جسمه على نحو مذهل ما يَشمل الإنسان من أقدار قدرها الخالق العظيم بعدله وحكمته ، وما قدمناه ما هو إلا قطوف يسيرة مما ورد فى القرآن الكريم كنموذج قدمناه لمن يمضى فى طريق الإيمان .

وفى أحوال الإنسان فى صحته وحياته ورزقه ومماته عبر لعباد الله المؤمنين نقف منها – كمثال – على مفردة الرزق] .

الـرزق :

يقول تعالى : ﴿ **أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويَقْدِر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾[١٧١] .

اى : يوسع الرزق على قوم ويضيقه على آخرين ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون .

[وكتاب الكون أمامنا كتاب مفتوح لكل ذى بصر وبصيرة يقود التفكر فيه وفى خالقه إلى الإيمان وهو طريق النجاة] .

طريق النجاة :

يقول تعالى : ﴿ **والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر** ﴾(١٧٢) .

والعصر : الزمان الذى يقع فيه حركات بنى آدم ، من خير وشر فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفى خسر أى فى خسارة وهلاك .

﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ، وتواصوا بالحق وهو أداء الطاعات ، وترك المحرمات ، وتواصوا بالصبر على المصائب والأقدار ، وأذى من يؤذى ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر .

وقال الشافعى رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم .

[والطريق القصير المباشر للنجاة هو طاعة الله والرسول والتقوى وهذا جماع الفضائل] .

يقول تعالى : ﴿ **ومن يُطع الله ورسوله ويخشَ الله ويتَّقه فأولئك هم الفائزون** ﴾(١٧٣) .

أى : ومن يطع الله ورسوله فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه ويخشى الله فيما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل [من أمور حياته] فأولئك هم الفائزون الذين فازوا بكل خير ، وأمنوا من كل شر فى الدنيا والآخرة .

الباب الثالث
أحوال المؤمنين

١ ـ صور من حياة المؤمنين

الله ولى المؤمنين :

يقول تعالى : ﴿ **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾(١٧٤) .

يخبرنا تعالى أنه يهدى من اتبع رضوانه سبل السلام ، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر ، والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير ، وان الكافرين إنما وليهم الشياطين تزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك [أي الكذب] ﴿ **أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ ،

ولهذا وحد تعالى لفظ النور [أي جعله مفراد] وجمع الظلمات ، لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة ، وكلها باطلة . قال تعالى :

﴿ **وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾(١٧٥) .

وقال تعالى : ﴿ **وجعل الظلمات والنور** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **عن اليمين والشمائل** ﴾ . إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق ، وانتشار الباطل وتفرقه وتشعبه .

وقال أيوب بن خالد : يُبْعث أهل الأهواء – أو أهل الفتن – فمن كان هواه الإيمان كانت فتنته بيضاء مضيئة ، ومن كان هواه الكفر كانت فتنته سوداء مظلمة ، ثم قرأ هذه الآية :

﴿ **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات** ... ﴾ إلى آخر الآية الكريمة ..

إيجابية المؤمن :

يقول تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾[١٧٦] .

يقول تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة** ﴾ أي منتصبة للقيام بأمر الله ، في الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقال أبو جعفر الباقر[١١٧] : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير** ﴾ ثم قال : الخير اتباع القرآن وسنني .

و ﴿ **أولئك هم المفلحون** ﴾ قيل هم خاصة الصحابة وخاصة الرواة ، بمعنى المجاهدين والعلماء .

والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة .

قال رسول الله ﷺ : « **من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان** »[١٧٨] .

وقال كذلك : « **والذي نفسي بيده لتأمُرُنّ بالمعروف ولتنهَوُنّ عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لَتَدْعُنّه فلا يستجيب لكم** »[١٧٩] .

والأحاديث في هذا الباب كثيرة ..

[إن من أحوال المؤمنين الخاصة هو امتلاء قلبه بيقين دوره الإيجابي في الحياة فالمؤمن في الكون صاحب رسالة تجاه نفسه وتجاه الكون كله من حوله ،

بقدر استطاعته يجاهد ويعمل ويضرب الباطل ويكون محركا قويا لكل تغيير إلى الأفضل .. إلى الخير ، خيره وخير الناس وخير أمة المسلمين] .

يقول تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون** ﴾[١٨٠] .

يخبرنا تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم ، وقيل المعنى خير الناس للناس . أي أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس ، [وجاء الحديث] قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر ، فقال : يا رسول الله ، أي الناس خير ؟

فقال : خير الناس أقرؤهم وأتقاهم لله ، وآمَرُهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر ، وأوصلهم للرحم[١٨١] .

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ ، قال : هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة .

والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة ، كل قَرْن بحسبه ، وخير قرونهم الذين بُعث رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم – كما قال في الآية الأخرى .

﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا** ﴾ أي خياراً ﴿ **لتكونوا شهداء على الناس** ﴾[١٨٢] .

وقال النبي ﷺ : « **أنتم توفون سبعين أمة ، أنتم خيرها ، وأنتم أكرم على الله عز وجل** »[١٨٣] .

وإنما حازت هذه الأمة السبق إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ ، فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله ، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يُعْطه نبياً قبله ولا رسولاً من الرسل .

قال علي رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : ﴿ **أعطيت ما لم يُعط أحد من الأنبياء ، فقلنا** : يا رسول الله ، ما هو ؟

قال : **نُصرتُ بالرعب واعطيتُ مفاتيح الأرض ، وسميت أحَمد ، وجعل التراب لي طهورا ، وجعلت أمتي خير الأمم »**[١٨٤] .

قال عبدالله بن مسعود[١٨٥] : قال لنا رسول الله ﷺ :

- **أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة ؟ فكبرنا . ثم قال :**
- **أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ فكبرنا . ثم قال :**
- **أني لأرجو أن تكونوا شطر [أي نصف] أهل الجنة**[١٨٦] .

وفي مسند أحمد : أن النبي ﷺ قال :

« **أهل الجنة عشرون ومائة ، ونصف هذه الأمة من ذلك ثمانون صفا** » .

وقال عمر بن الخطاب في حجة حجها عندما رأى من الناس سرعة – أو سوءا – هذه الآية : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ ثم قال : من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله فيها .

ومن لم يتصف بذلك شابه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله : ﴿ **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ...** ﴾ الآية ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم فقال : ﴿ **ولو آمن أهل الكتاب** ﴾ أي بما أنزل على محمد ﷺ ﴿ **لكان خيراً لهم ، منهم المؤمنون ، وأكثرهم الفاسقون** ﴾ أي : قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان .

ثم قال مخبراً عباده المؤمنين ومبشراً لهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين ، فقال : ﴿ **لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون** ﴾ ، وهكذا وقع ، فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم آنوفهم ، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ، كلهم أذلهم الله ، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن ، وسلبوهم مُلْكَ الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين ، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك ، ويحكم

عليه السلام بشرع محمد ، عليه أفضل الصلاة والسلام فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام .

بطانة المؤمن :

يقول تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خَبَالا ودّوا ما عَنِتّمْ قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون** ﴾[187] .

يقول تبارك وتعالى ناهيا عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة ، أي يطلعونهم على سرائرهم [ونواياهم] وما يضمرونه لأعدائهم .

والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خبالا ، أي : يسعون في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن ، وبما يستطيعونه من المكر والخديعة ، ويودون ما يعنتُ المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم وقوله ﴿ **ولا تتخذوا بطانة من دونكم** ﴾ ، أي : من غيركم من أهل الأديان ، وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخلة أمره .

وقال النبي ﷺ : « **ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان :**

- **بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه .**
- **وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه ،**

والمعصوم من عصم الله »[188] .

وقيل لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه :

إن ها هنا غلاما من أهل الحيرة ، حافظ كاتب ، فلو اتخذته كاتبا ؟ قال : قد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين .

ففي هذا الأثر مع هذه الآية دلالة على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة ، التي فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمورهم التي يُخْشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر** ﴾ أي : قد لاح على صفحات وجوههم وفلتات ألسنتهم من العداوة – مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله – مالا يخفى مثله على لبيب عاقل . ولهذا قال ﴿ **قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم** ﴾ أي : أنتم أيها المؤمنون – تحبون المنافقين بما يظهرون لكم من الإيمان ، فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم ، لا باطنا ولا ظاهرا ﴿ **وتؤمنون بالكتاب كله** ﴾ ، أي : ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب ، وهم عندهم الشك والريب والحيرة . [والمقصود بالكتاب كله كتابكم وكتابهم وما مضى من الكتب قبل ذلك] .

وقوله : ﴿ **وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ** ﴾ . والأنامل : أطراف الأصابع وقيل الأصابع ..

وهذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة ، وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه ، كما قال تعالى : ﴿ **وإذا خلَوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ** ﴾ وذلك أشد الغيظ والحنق . قال الله تعالى :

﴿ **قل موتوا بغيظكم ، إن الله عليم بذات الصدور** ﴾ أي : مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم ، فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين مكمّل دينَه ، ومُعْلِ كلمته ومظهر دينه ، فموتوا أنتم بغيظكم ﴿ **إن الله عليم بذات الصدور** ﴾ أي : هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم ، وتُكنه سرائركم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين ، وهو مجازيكم عليه من الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤملون ، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها ، فلا خروج لكم منها .

ثم قال : ﴿ **إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها** ﴾ . وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد ، وكثروا وعز أنصارهم ، ساء ذلك المنافقين ، وإن أصاب المسلمين جدب أو أدبل عليهم الأعداء ، لما لله في ذلك من الحكمة ، كما جرى يوم أحد – فرح المنافقون بذلك – قال الله تعالى مخاطباً

عباده المؤمنين : ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط** ﴾ :

يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار ، وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوى ، والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم ، فلا حول ولا قوة لهم إلا به ، وهو الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن . ولا يقع في الوجود شئ إلا بتقديره ومشيئته ، ومن توكل عليه كفاه .

ثم شرع تعالى [بعد ذلك] في ذكر قصة أحد ، وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين ، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين وبيان صبر الصابرين .

التقوى :

[التقوى هي حال المؤمن وللتقوى صور كثيرة في السلوك اليومي مع الآخرين وبين الإنسان ونفسه وقبل كل هذا بين الإنسان وخالقه] ..

يقول تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾(١٨٩) .

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضعافا مضاعفة ، كما كانوا يقولون في الجاهلية – إذا حل أجل الدين – إما أن يَقْضِي وإما أن يُربى [أي يقام على أساس الربا] . فإن قضاه وإلا زاده في المدة وزاده الآخر في القَدْر ، وهكذا كل عام ، فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفا .

وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون فى الأولى والأخرى ، ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها ، فقال : ﴿ **واتقوا النار التي أعدت للكافرين ، وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون** ﴾ .

ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارعة إلى نيل القُرُبات ، فقال :

﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين** ﴾ أي : كما أعدت النار للكافرين – وقد قيل إن معنى قوله :

﴿ **عرضها السماوات والأرض** ﴾ – تنبيها على اتساع طولها ، وقيل بل عرضها كطولها . لأنها قبة تحت العرش ، والشئ المقبب والمستدير عرضه كطوله ، وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح – البخاري – إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تَفَجّرُ أنهار الجنة ، وسقفها عرش الرحمن .

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحديد : ﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض** ﴾ الآية .

وقد كتب هرقل إلى النبي ﷺ :

– إنك دعوتني إلى جنة عرضها السماوات والأرض ، فأين النار ؟

فقال النبي ﷺ :

– سبحان الله ! فأين الليل إذا جاء النهار(١٩٠) .

وفي حديث شريف آخر

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال :

– أرأيت قول الله تعالى : ﴿ **جنة عرضها السماوات والأرض** ﴾ فأين النار ؟

قال :

– أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شئ ، فأين النهار ؟ قال :

– حيث شاء الله . قال :

– وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل(١٩١) .

وهذا يحتمل معنيين ، أحدهما : أن يكون المعنى في ذلك ، أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان ، وإن كنا لا نعلمه ، وكذلك النار تكون حيث يشاء الله عز وجل ، وهذا أظهر كما تقدم .

الثاني : أن يكون المعنى : ان النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب ، فإن الليل يكون من الجانب الآخر ، فكذلك الجنة في أعلى عِلّيّين فوق السماوات تحت العرش وعرضها كما قال الله عز وجل : ﴿ **كعرض السماوات والأرض** ﴾ . والنار في أسفل سافلين ، فلا تناف [لا تناقض] بين كونها كعرض السماوات والأرض ، وبين وجود النار – والله أعلم .

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال :

﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ ..

﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء ﴾ أي في الشدة والرخاء ، والصحة والمرض ، وفي جميع الأحوال ، كما قال : **﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية ﴾** . والمعنى : أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والانفاق في مراضيه ، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر .

وقوله **﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾** أي : إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه ، وعفوا مع ذلك عمن أساء إليهم ، وقد ورد في بعض الآثار :

يقول الله تعالى : **﴿ ابن آدم ، اذكرني إذا غضبت ، أذكرك إذا غضبتُ ، فلا أهلكُكَ فيمن أهلِك ﴾** .

وقال النبي ﷺ : « **ليس الشديد بالصُّرَعة [أي القوي الذي لا يغلب] ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب** »(١٩٢) .

وعن رجل شهد النبي ﷺ يخطب فقال :

- **تدرون من الرقوب ؟ قالوا :**
- **الذي لا ولد له . قالَ :**
- **الرقوب كل الرقوب الذي له ولد فمات ، ولم يقدّم منهم شيئا . قال :**
- **تدرون ما الصعلوك ؟ قالوا :**
- **الذي ليس له مال . قال النبي ﷺ :**
- **ما الصُّرَعَة ؟ قالوا**
- **الصريع . قال : فقال ﷺ :**
- **الصرعة كل الصرعة الذي يغضب فيشتد غضبه . ويحمر وجهه ، ويقشعر شعره ، فيصرعه غضبه**(١٩٣) .

؛ وقال رجل : يا رسول الله ، أوصني . قال : لا تغضب . قال الرجل : ففكرت حين قال ﷺ : « **إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خُلِق من النار ، وإنما تُطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ** »(١٩٥) .

فقوله : ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ أي : لا يعملون غضبهم في الناس ، بل يكفون عنهم شرهم ، ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل .

ثم قال ﴿ **والعافين عن الناس** ﴾ أي : مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم فلا يبقى في أنفسهم مَوْجدة [أي غضب] على أحد ، وهذا أكمل الأحوال ، ولهذا قال : ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ - فهذا من مقامات الإحسان وفي الحديث : « **ثلاثة أُقْسِم عليهن : ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، ومن تواضع لله رفعه الله** »(١٩٦) .

ويقول تعالى : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يُصِروا على ما فعلوا وهم يعلمون** ﴾ . أي إذا صدر منهم ذنب اتبعوه بالتوبة والاستغفار .

وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه : أنه توضأ لهم وضوء النبي ﷺ ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من توضأ نحو وضوئي هذا ، ثم صلى ركعتين لا يُحَدث فيهما نفسه ، غفر له ما تقدم من ذنبه** » .

وعن أنس بن مالك أنه قال : بلغني أن ابليس حين نزلت : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم** ﴾ الآية ، بكى .

وجاء في الحديث : « **قال ابليس : يا رب ، وعزتك لا أزال أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم فقال الله :**

﴿ **وعزتي وجلالي : ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني** ﴾(١٩٧) .

وقوله : ﴿ **ومن يغفر الذنوب إلا الله** ﴾ أي : لا يغفرها أحد سواه كما قال الإمام أحمد .

وقوله : ﴿ **ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون** ﴾ : أي تابوا عن ذنوبهم ، ورجعوا إلى الله عن قريب ، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليه غير مبتعدين عنها ، ولو تكرر منهم الذنب تابو عنه .

وقال رسول الله ﷺ : « **ما أصر من استغفر ، وان عاد في اليوم سبعين مرة** »(١٩٨) .

وقوله : ﴿ **وهم يعلمون** ﴾ .. أن من تاب تاب الله عليه . وهذا كقوله تعالى ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده** ﴾(١٩٩) .

وكقوله : ﴿ **ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما** ﴾(٢٠٠) . ونظائر هذا كثيرة جدا .

ثم قال تعالى – بعد وصفهم مما وصفهم به : ﴿ **أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين** ﴾ .

أي : جزاؤهم على هذه الصفات مغفرة من الله وجنات ﴿ **تجري من تحتها الأنهار** ﴾ : أي : أمن أنواع المشروبات ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أي : ماكثين فيها ﴿ **ونعم أجر العاملين** ﴾ يمدح الله تعالى الجنة .

التسليم بالأجل المحدد :

[المؤمن يسلم بأن أجله واحد محتوم محدد ، ولهذا يقبل على القتال في سبيل الله دون خوف لأنه يعلم أن نهاية الأجل لا ترتبط بحال دون حال] .

يقول تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين قيل لهم كُفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخَّرْتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ، أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ، وإن تصبهم حسنة**

يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيّئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ﴾[٢٠١] .

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام – وهم بمكة – مأمورين بالصلاة والزكاة وإن لم تكن ذات النُّصُب ، لكن كانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم ، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين ، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم ، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة ، منها قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم ، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض ، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء لائقا ، فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة ، لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار ، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفا شديدا (وقالوا : ﴿ **ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب** ﴾ أي : لوما أخرت فرضه إلى مدة أخرى ، فإن فيه سفك الدماء ، ويُتْم الأبناء ، وتأيم النساء [أي يكن بلا أزواج] .

وقوله : ﴿ **قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى** ﴾ أي : آخرة المتقي خير من دنياه .

﴿ **ولا تظلمون فتيلا** ﴾ أي : من أعمالكم بل توفونها أتم الجزاء ، وهذه تسلية لهم عن الدنيا ، وترغيب لهم في الآخرة ، وتحريض لهم على الجهاد ..

وعندما قرأ الحسن : ﴿ **قل متاع الدنيا قليل** ﴾ قال : رحم الله عبدا صحبها على حسب ذلك ما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة ، فرأى في منامه بعض ما يحب ، ثم انتبه .

وقوله : ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت** ﴾ .. أي : أنتم صائرون إلى الموت لا محالة ، ولا ينجو منه أحد منكم ، كما قال تعالى : ﴿ **كل من عليها فان** ﴾[٢٠٣] .. الآية . وقال تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾[٢٠٤] . وقال تعالى : ﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد** ﴾[٢٠٥] .

والمقصود : أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة . وسواء عليه جاهد أو لم يجاهد ، فإنه له أجلا محتوما ، وأمدا مقسوما ، كما قال خالد بن الوليد عندما جاءه الموت على فراشه :

لقد شهدت كذا وكذا موقفا ، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية ، وها أنا أموت على فراشي ، فلا نامت أعين الجبناء .

وقوله : ﴿ **ولو كنتم في بروج مشيدة** ﴾ أي حصينة منيعة عالية رفيعة ، وقيل : هي بروج في السماء . والصحيح أنها المنيعة أي لا يغني حذر وتحصن من الموت كما قال زهير بن أبي سلمى(٢٠٦) .

ومن خاف أسباب المنية يلقها ولو رام أسباب السماء بسلم

وقيل : إن امرأة فيمن كان قبلنا أخذها الطَّلْقُ ، فأمرت أجيرها [خادمها] أن يأتيها بنار ، فخرج ، فإذا هو برجل واقف على الباب ، فقال : ما ولدت المرأة ؟ فقال : جاريه . فقال : أما إنها ستزنى بمائة رجل ، ثم يتزوجها أجيرها – ويكون موتها بالعنكبوت . فكر راجعا ، فبعج الجارية بسكين في بطنها . فشقه ، ثم ذهب هارباً ، وظن أنها قد ماتت . فخاطت الأم بطنها ، فبرئت وشبت وترعرعت ، ونشأت أحسن امرأة ببلدتها . فذهب ذاك الأجير ما ذهب ، ودخل البحور فاقتنى أموالا جزيلة ، ثم رجع إلى بلده وأراد أن يتزوج .

فقال لعجوز : أريد أن أتزوج بأحسن امرأة بهذه البلدة . فقالت له : ليس هنا أحسن من فلانة . فقال : اخطبيها عَلَيّ .

فذهبت إليها فأجابت ، فدخل بها فأعجبته إعجابا شديدا ، فسألته عن أمره ومن أين مقدمه ؟ فأخبرها خبره ، وما كان من أمره في هربه . فقالت : أنا هي ، وأرته مكان السكين ، فتحقق ذلك فقال :

– لئن كنت إياها فلقد أخبرتني باثنتين لا بد منهما ، أحدهما : انك قد زنيت بمائة رجل . فقالت : لقد كان شيئ من ذلك ، ولكن لا أدري ما عددهم . فقال : هم مائة ..

والثانية : انك تموتين بالعنكبوت : فاتخذ لها قصرا منيعا شاهقا ، ليحرزها من ذلك ، فبينما هم يوما إذا بالعنكبوت في السقف ، فأراها إياها ، فقالت : اهذه التي تحذرها على ، والله لا يقتلها إلا أنا ..، فأنزلوها من السقف فعمدت إليها فوطئتها بإبهام رجلها فقتلتها ، فطار من سمها شئ ، فوقع بين ظفرها ولحمها ، فاسودت رجلها وكان في ذلك أجلها .

وقوله : ﴿ **وإن تصبهم حسنة** ﴾ أي : خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك : ﴿ **يقولوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيّئة** ﴾ أي قحط وجدب ونقص في الثمار والزروع أو موت أولاد أو نتاج أو غير ذلك ، ﴿ **يقولوا : هذه من عندك** ﴾أي : بسبب اتباعنا لك وأقتدائنا بدينك كما قال تعالى عن قوم فرعون : ﴿ **فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه – وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه** ﴾(٢٠٦) ، وكما قال تعالى : ﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف** ﴾(٢٠٧) .. الآية .

وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهرا وهم كارهون له في نفس الأمر ، ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم للنبي ﷺ .. فأنزل الله عز وجل : ﴿ **قل : كل من عند الله** ﴾ أي : الجميع بقضاء الله وقدره ، وهو نافذ في البر والفاجر ، والمؤمن والكافر .

ثم قال تعالى منكرا على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب . وقلة منهم وعلم ، وكثرة جهل وظلم : ﴿ **فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا** ﴾

وقال أبو صالح في الآية ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾ أي : بذنبك ، وأنا الذي قدرتها عليك رواه ابن جرير .

لا يخاف ظلما :

يقول تعالى : ﴿ **ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما** ﴾(٢٠٨) .

لما ذكر الله الظالمين ووعيدهم ثنى بالمتقين وحكمهم وهو أنهم لا يُظلمون ولا يُهضمون أي لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم فالظلم الزيادة بأن يحمل على الإنسان ذنب غيره والهضم النقص .

الخلافة والأمن :

يقول تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنَنّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾[٢٠٩] .

هذا وعد من الله لرسوله - ﷺ - بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أي أئمة الناس والولاة عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد ، وليبدلن بعد خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم ، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك ، وله الحمد والمنة فإنه لم يمت رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها . وأخذ الجزية من مجوس هَجَر ، ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والاسكندرية - وهو المقوقس - وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة .

ثم .. لما مات رسول الله ﷺ واختار الله ما عنده من الكرامة ، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق فَلَمّ [أي جمع] شَعَث ما وَهَي عند موته - عليه الصلاة والسلام ، وثبت جزيرة العرب ومهدها ، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد - رضي الله عنه - ففتحوا طرفا منها ، وقتلوا خلقا من أهلها ، وجيشا آخر صحبة أبي عبيدة - رضي الله عنه ، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثا صحبة عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى بلاد مصر ، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بُصْرى ودمشق وغيرهما من بلاد حَوران وما والاها ، وتوافاه الله عز وجل واختار له ما عنده من الكرامة - ومنَّ الله على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق ، فقام في الأمر بعده قياما تاما ، لم يَدُر الفلك بعد الأنبياء على مثله ، في قوة سيرته وكمال عدله ؛ وتم في أيامه فتح البلاد الشامية

بكمالها ، وديار مصر إلى آخرها ، وأكثر أقليم فارس ، وكَسَّر كسرى وأهانه غاية الهوان ، وتقهقر إلى أقصى مملكته وقصرَّ قيصر ، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينية ، وانفق أموالهما في سبيل الله ، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله ، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة .

ثم لما كانت الدولة العثمانية [يريد خلافة عثمان رضي الله عنه] امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب – [وقد تم ذلك كله في عهد بني أمية ولعل هذا ما يعنيه ابن كثير] – إلى أقصى ما هنالك : الأندلس ، وقبرص ، وبلاد القيروان ، وبلاد ... مما يلي البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى ، وباد ملكه بالكلية . وفتحت مدائن العراق ، وخراسان ، الأهواز ، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا ، وخذل الله ملكهم ...هم خاقان ، وجُبِيَ الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين ... بن عفان رضي الله عنه ، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن .

ولهذا ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « **إن الله زَوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوي لي منها** [أي ما جمعه وقبضه الله لي فرأيته] » فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله فنسأل الله الإيمان به ، وبرسوله ، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا .

وقال جابر بن سمرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا – ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت علي فسألت أبي : ماذا قال رسول الله ﷺ ؟ فقال : كلهم من قريش** »(٢١٠) .

وهذا الحديث فيه دلالة على أنه لابد من وجود اثني عشر خليفة عادلا ، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر ، فإن كثيرا من أولئك لم يكن لهم من الأمر شيئ ، فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش ، يَلوُن [أي يحكمون]

فيعدلون ، وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدمة ، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين ، بل يكون وجودهم في الأمة متتابعا ، ومتفرقا ، وقد وُجِد منهم أربعة على الولاء وهم :

أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي رضي الله عنهم .

ثم كانت بعدهم فترة ثم وجد منهم ما شاء الله ، ثم قد يوجد منهم من بقي في وقت يعلمه الله . ومنهم المهدي الذي يطابق اسمه اسم رسول الله ﷺ ، وكنيته كنيته ، يملأ الأرض عدلا وقسطا ، كما ملئت جورا وظلما .

وقال عليه الصلاة والسلام : الخلافة بعدي ثلاثون سنة ، ثم تكون ملكا عضوضا [أي ظالما][211] .

وقوله تعالى : ﴿ **كما استخلف الذين من قبلهم** ﴾ كما قال تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ **عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون** ﴾[212] .

وقال تعالى : ﴿ **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون** ﴾[213] .

وقوله تعالى : ﴿ **وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا** ﴾ ، كما قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم ، حين وفد عليه : أتعرف الحيرة ؟ قال : لم أعرفها ، ولكن قد سمعت بها . قال :

– « **فو الذي نفسي بيده ، ليُتمّن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة [أي المرأة] من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز : قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال :**

– **نعم كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد** » .

قال عدي بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله ﷺ قد قالها[214] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة ، والدين والنصر والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب** »(٢١٥) .

وقوله : ﴿ **يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ أي : فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد فَسَق عن أمر ربه وكفى بذلك ذنبا عظيما ، فالصحابة – رضي الله عنهم – لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله عز وجل ، وأطوعهم لله – كان نصرهم بحسبهم ، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب ، وأيدهم تأييداً عظيما ، وتحكموا في سائر العباد والبلاد ، ولما قصرَّ الناس بعدهم في بعض الأوامر ، نقص ظهورهم بحسبهم ، ولكن قد ثبت في الصحيحين ، من غير وجه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة** » . وفي رواية : « **حتى يأتي أمر الله وهم كذلك** » . وفي رواية : « **حتى يقاتلوا الدجال** » . وفي رواية : « **حتى ينزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون** » . وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها .

نزاع المؤمنين :

يقول تعالى : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيئ إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم تُرحمون** ﴾(٢١٦) .

يقول تعالى ... آمراً بالإصلاح بين المسلمين الباغين بعضهم على بعض : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾ ، فسمّاهم مؤمنين مع الاقتتال . وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت ، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة وغيرهم .

؛ وهكذا ثبت في صحيح البخاري ... أن رسول الله ﷺ خطب يوما ومعه على المنبر الحسن بن علي ، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول :

– « **إن ابني هذا سيّد ولعل الله أن يصلح به فئتين عظيمتين من المسلمين** »(٢١٧) . فكان كما قال صلوات الله وسلامه عليه ، أصلح الله بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة .

وقوله : ﴿ **فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله** ﴾ ..

أي : حتى ترجع إلى أمر الله وتسمع للحق وتطيعه .

؛ كما ثبت في الصحيح عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « **انصر أخاك ظالما أو مظلوما** » قلت :

– يا رسول الله ، هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالما ؟ قال :

– تمنعه من الظلم ، فذاك نصرك إياه »(٢١٨) .

؛ وجاء في الحديث : قيل للنبي ﷺ :

– لو أتيت عبدالله بن أبي ؟

فانطلق إليه نبي الله – ﷺ – وركب حمارا ، وانطلق المسلمون يمشون ، وهي أرض سَبِخَه ، فلما انطلق إليه النبي – ﷺ – قال [للنبي] :

– إليك عني ، فوالله لقد آذاني ريح حمارك .

فقال رجل من الأنصار :

– والله لحمار رسول الله أطيب ريحا منك .

قال فغضب لعبدالله رجال من قومه ، فغضب لكل واحد منهما أصحابه ، قال : فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال ، فبلغنا أنه أنزلت فيهم : ﴿ **وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾(٢١٩) .

ورواه البخاري في « الصلح » ، ومسلم في المغازي .

وذكر سعيد بن جبير : أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال ، فأنزل الله هذه الآية ، فأمر بالصلح بينهما .

وقال السدي :

كان رجل من الأنصار يُقال له (عمران) كانت له امرأة تدعى (أم زيد) ، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في [غرفة] له لا يدخل عليها أحد من أهلها . وان المرأة بعثت إلى أهلها ، فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها وان الرجل قد كان خرج ، فاستعان أهل الرجل ، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها ، فتدافعوا واجتلدوا بالنعال ، فنزلت فيهم هذه الآية : ﴿ **فبعث إليهم رسول الله – ﷺ – وأصلح بينهم ، وفاءوا إلى أمر الله** ﴾ .

وقوله : ﴿ **فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين** ﴾ .

أي : اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض ، بالقسط ، وهو العدل ؛ ﴿ **إن الله يحب المقسطين** ﴾ .

، وقال رسول الله ﷺ : « **إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن ، بما أقسطوا في الدنيا** »(٢٢٠) .

، وقال النبي ﷺ : « **المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش ، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما وَلُوا** »(٢٢١) .

وقوله : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ .

أي : الجميع إخوة في الدين .

، كما قال رسول الله ﷺ : « **المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه** »(٢٢٢) .

• وفي الصحيح : « **والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه** »[٢٢٣] .

• وفي الصحيح أيضا : « **إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك : آمين ، ولك بمثله** »[٢٢٤] .

• وفي الصحيح : « **مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر** » .

• وفي صحيح البخاري : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وشبك بين أصابعه** » .

وقوله : ﴿ **فأصلحوا بين أخويكم** ﴾ إلى آخر الآية .. سبق شرحه .

كفارة القتل الخطأ :

يقول تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأً ومن قتل مؤمنا خطأً فتحرير رقبةٍ مؤمنة وديّةٌ مُسَلّمَةٌ إلى أهله إلا أن يَصّدّقُوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاقٌ فديةٌ مسلّمة إلى أهله وتحرير رقبةٍ مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ، وكان الله عليما حكيما ، ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها وغضِب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما** ﴾[٢٢٥] .

المعنى : ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه .

• كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « **لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة** » .

وإذا وقع شيئ من هذه الثلاث ، فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله ، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه .

وقوله : (إلا خطأ) هو استثناء منقطع .

ولهذا شواهد كثيرة .

واختلف في أسباب نزول هذه الآية ، فقال مجاهد وغير واحد : نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه ، وهي أسماء بنت مُخَرّبه ، وذلك أنه قتل رجلا كان يعذبه مع أخيه على الإسلام ، وهو الحارث بن يزيد العامري ، فأضمر له عيّاش السوء ، فأسلم ذلك الرجل ، وهاجر وعياش لا يشعر ، فلما كان يوم الفتح رآه ، فظن أنه على دينه [الأول] ، فحمل عليه فقتله ، فأنزل الله هذه الآية .

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت في أبي الدرداء ، لأنه قتل رجلا وقد قال كلمة الإسلام حين رفع السيف ، فأهوى به إليه ، فقال كلمته ، فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ قال : إنما قالها متعوذا فقال له : « **هلّا شققت عن قلبه** »[٢٢٦] .

وقوله : ﴿ **ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله** ﴾ .

هذان واجبان في قتل الخطأ ، أحدهما : الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم ، وإن كان خطأ ، ومن شرطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزئ الكافرة .

وقيل : لا يجزئ الصغير حتى يكون قاصدا للإيمان ، (فتحرير رقبة مؤمنة) لا يجزى فيها صبي .

والذي عليه الجمهور [جمهور الفقهاء] أنه متى كان مسلما صح عتقه عن الكفارة ، سواء كان صغيراً أو كبيرا .

وعن رجل من الأنصار : أنه جاء بأمة [عبدة] سوداء ، فقال :

— يا رسول الله ، إن عليّ رقبة مؤمنة ، فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقتها .

فقال لها رسول الله ﷺ :

– أتشهدين أن لا إله إلا الله ؟

قالت :

– نعم .

قال :

– أتشهدين أني رسول الله ؟

قالت :

– نعم .

قال:

– أتؤمنين بالبعث بعد الموت ؟

قالت :

– نعم .

– قال :

– اعتقها(٢٢٧) .

؛ وعن معاوية بن الحكم أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء قال لها رسول الله ﷺ : أين الله

قالت : في السماء .

قال : من أنا .

قالت : أنت رسول الله ﷺ .

قال : أعتقها ، فإنها مؤمنة(٢٢٨) .

وقال : « **ودية مسلمة إلى أهله** » هو الواجب [الثاني] فيما بين القاتل وأهل القتيل ، عَوضًا لهم عما فاتهم من قريبهم . وهذه الدية إنما تجب أخماسا .

وقيل تجب أرباعا . وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل ، لا في ماله .

[العاقلة هم عصبة الرجل : أي قرابته الذكور البالغون من قبل الأب الموسرون العقلاء] .

وجاء في أمر الدية في كتاب فقه السنة للسيد سابق : أن الدية جزاء يجمع بين العقوبة والتعويض . وقال في قدرها : الدية فرضها رسول الله ﷺ وقدَّرها فجعل دية الرجل الحر المسلم ، مائة من الإبل على أهل الإبل ، ومائتي بقرة على أهل البقر ، وألفي شاة على أهل الشياة ، وألف دينار على أهل الذهب ، واثني عشر ألف درهم على أهل الفضة ، ومائتي حلة على أهل الحلل . فأيها أحضر من تلزمه الدية ألزم الولي قبولها ، سواء أكان ولي الجناية من أهل ذلك النوع أو لم يكن ، لأنه أتى بالأصل في الواجب عليه] .

وقوله تعالى ﴿ **إلا أن يصدقوا** ﴾ أي : فتجب الدية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب .

وقوله : ﴿ **فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة** ﴾ ، أي : إذا كان القتيل مؤمنا ، ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب ، فلا ديّة لهم ، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير ..

وقوله : ﴿ **وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ .. الآية .

أي : فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة ، فلهم دية قتيلهم ، فإن كان مؤمنا فدية كاملة ، وكذا إن كان كافرا أيضا عند طائفة من العلماء .

وقيل : يجب في الكافر نصف دية المسلم وقيل ثلثها ، كما هو مفصل ، ويجب أيضا على القاتل تحرير رقبة مؤمنة ... ﴿ **فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين** ﴾ .

أي : لا إفطار بينهما ، بل يسرد صومهما إلى آخرهما ، فإن أفطر من غير عذر ، من مرض أو حيض أو نفاس ، استأنف . واختلفوا في السفر : هل يقطع أم لا ؟ على قولين .

وقوله : ﴿ **توبة من الله وكان الله عليما حكيما** ﴾ .

أي : هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين . واختلفوا فيمن لا يستطيع الصيام .

هل يجب عليه اطعام ستين مسكينا ، كما في كفارة الطهارة ؟

هناك قولان : أحدهما نعم ، كما هو منصوص في كفارة الظهار ، وإنما لم يذكرها هنا ، لأن هذا مقام تهديد وتخويف وتحذير ، فلا يناسب أن يذكر فيه الاطعام لما فيه من التسهيل والترخيص .

والقول الثاني : لا يعدل إلى الإطعام ، لأنه لو كان واجبا لما أخر بيانه عن وقت الحاجة .

ثم .. لما بين تعالى حكم القتل الخطأ شرع في بيان حكم القتل العمد فقال :

﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمدا** ﴾ .. الآية .

وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم ، الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله حيث يقول سبحانه في سورة الفرقان : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق** ﴾ ... الآية

وقال تعالى : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا** ﴾ .. الآية

والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً .

قال رسول الله ﷺ : « **أول ما يقضي بين الناس يوم القيامة في الدماء** »(٢٢٩) .

﴿ **وفي حديث آخر : لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم** »(٢٣٠) .

وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يرى أنه لا توبة للقاتل عمدا لمؤمن . وقال ابن عباس : نزلت هذه الآية : ﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم** ﴾ . هي آخر ما نزل ، وما نسخها شيء .

وفي حديث آخر : قال رسول الله ﷺ : « **كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا ، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا** »(٢٣١)

٤ وعن ابن عباس أن رجلا أتاه فقال :

– أرأيت رجلا قتل رجلا متعمدا ؟

فقال : ﴿ **جزاؤه جهنم خالدا فيها** ﴾ .. الآية قال : قد نزلت في آخر ما نزل ما نسخها شيء حتى قبض رسول الله ﷺ . وما نزل وحي بعد رسول الله ﷺ قال : أرأيت إن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ؟ .

قال : وأنّى له التوبة . وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ثكلته أمه** [**أي فقدته**] . **رجل قتل رجلا متعمدا ، يجيء يوم القيامة آخذا قاتله بيمينه أو بيساره – وآخذا رأسه بيمينه أو بشماله – تشخب أوداجه دما** [**أي تنفجر دما**] **في قُبُل العرش يقول : يارب ، سل عبدك فيم قتلني** »[٢٣٢] .

والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها : أن القاتل له توبة فيما بينه وبين ربه عز وجل ، فإن تاب وأناب وخشع وخضع ، وعمل عملا صالحا ، بدل الله سيئاته حسنات ، وعوّض المقتول من ظلامته وأرضاه عن ظلابته .

قال الله تعالى : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر** ﴾[٢٣٣] إلى قوله : ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل صالحا** ﴾ ... الآية .

وهذا خبر لا يجوز نسخه ، وحمله على المشركين ، وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر ، ويحتاج إلى دليل ، والله أعلم .

وقال تعالى : ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله** ﴾[٢٣٤] ... الآية . وهذا عام في جميع الذنوب ، من كفر وشرك ، وشك ونفاق ، وقتل وفسق ، وغير ذلك : كل من تاب من أي ذلك تاب الله عليه .

وقال تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يُشرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[٢٣٥] . فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك ، وهي مذكورة في هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها . لتقوية الرجاء . والله أعلم .

وثبت في الصحيحين خبر الاسرائيلي الذي قتل مائة نفس ، ثم سأل عالما : هل لي من توبة . فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟؟! ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه ، فهاجر إليه ، فمات في الطريق ، فقبضته ملائكة الرحمة(٢٣٦) .

وإن كان هذا في بني إسرائيل فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى ، لأن الله وضع عنا الأغلال والآصار [أي الأثقال] التي كانت عليهم ، وبعث نبينا بالحنيفية السمحاء ، فأما الآية الكريمة ، وهي قوله تعالى : ﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمدا** ﴾ .. الآية ، فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف : هذا جزاؤه إن جازاه .

ومعنى هذا .. ان هذا جزاؤه إن جوزي عليه ، وكذا كل وعيد على ذنب لكن قد يكون كذلك مُعَارضَ من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه ، على قول أصحاب الموازنة أو الإحباط . وهذا أحسن ما يُسلك في باب الوعيد ، والله أعلم بالصواب ..

وقد تواردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ : « **أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى ذرة من إيمان** »(٢٣٧) .

وأما من مات كافرا فالنص أنه لا يغفر له البتة ، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فإنه حق من حقوق الآدميين وهي لا تسقط بالتوبة ، ولا فرق بين المقتول والمسروق منه ، والمغصوب منه والمقذوف وسائر حقوق الآدميين ، فإن الاجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة ، ولابد من أدائها إليهم في صحة التوبة ، فإن تعذر ذلك فلابد من الطلابة يوم القيامة ، لكن لا يلزم من وقوع الطلابة وقوع المجازاة ، وقد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها ، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة ، أو يعوض الله المقتول من فضله بما يشاء ، من قصور الجنة ونعيمها ، ورفع درجته فيها ونحو ذلك . والله أعلم .

ثم .. للقتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة ، أما الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه ، قال الله تعالى : ﴿ **ومن قتل مظلوما فقد جعلنا**

لوليه سلطانا ﴾ ... الآية ، ثم هم مخيرون بين أن يقتلوا ، أو يعفوا ، أو يأخذوا دية مغلظة أثلاثا : [من النياق] ثلاثون حقه ، وثلاثون جذعه ، وأربعون خلفه [أي الحامل من النوق] – كما هو مقرر في كتب الأحكام واختلف الأئمة : هل تجب عليه كفارة عتق رقبة ، أو صيام شهرين متتابعين ، أو إطعام ؟ على أحد القولين – كما تقدم – في كفارة الخطأ .

كيف يعامل غير المسلمين ؟

يقول تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا** ﴾(٢٣٨) .

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، يعني مصاحبتهم ومصادقتهم ، ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم ، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شئ ، إلا أن تتقوا منهم تُقاةً ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير** ﴾(٢٣٩) أي يحذركم الله عقوبته في ارتكابكم نهيه ، ولهذا قال ها هنا : ﴿ **أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً** ﴾ أي حجة عليكم في عقوبته إياكم .

وقالوا : كل سلطان في القرآن حجة .

ويقول تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولَّهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾(٢٤٠) .

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى ، الذين هم أعداء الإسلام وأهله ، [قاتلهم الله] . ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض ، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال : ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم** ﴾ .

واختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمات ، فذكر السدى أنها نزلت في رجلين ، قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أحد : أما أنا فإني ذاهب إلى ذلك اليهودي ، فآوي إليه وأتهود معه لعله ينفعني إذا وقع أمر أو

حدث حادث ! وقال الآخر : وأما أنا فأذهب إلى فلان النصراني بالشام ، فآوي إليه وانتصر معه ، فأنزل الله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء** ﴾ .. الآيات .

وقال عكرمة : نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة : فسألوه : ماذا هو صانع بنا ؟ فأشار بيده إلى حلقه ، أي : انه الذبح(٢٤١) .

وقيل : نزلت في عبد الله بن أبي سلول . [ومن الروايات التي قيلت في ذلك تلك الرواية التي أوردها ابن جرير] : لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من يهود : آمنوا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر ! فقال مالك بن الصيف : أغركم أنكم أصبتم رهطا من قريش لا علم لهم بالقتال !! أما لو أمررنا [أي جعلنا] العزيمة أن نستجمع عليكم ، لم يكن لكم يد بقتالنا . فقال عباده : يا رسول الله . ان أوليائي من اليهود كانت شديدة أنفسهم ، كثيرا سلاحهم ، شديدة شوكتهم ، واني أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولاية يهود ، ولا مولى لي إلا الله ورسوله ، فقال عبدالله بن أبي : لكني لا أبرأ من ولاء يهود أنا رجل لا بد لي منهم . فقال رسول الله ﷺ : يا أبا الحباب ، أرأيت الذي تفست به من ولاء يهود على عبادة بن الصامت . فهو لك دونه ؟ فقال : إذا أقبل . فأنزل الله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء** ﴾ إلى قوله ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزُوًا ولَعِبا من الذين أوتوا الكتاب فيمن قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين** ﴾(٢٤٢) .

وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله ، من الكتابيين والمشركين ، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون ، وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي ، يتخذونها هزوا يستهزئون بها ، ولعبا يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد ، وفكرهم البارد ، كما قال القائل [أبو الطيب المتنبي] :

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

وقوله : ﴿ **من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار** ﴾ « من » ها هنا لبيان الجنس ، كقوله : ﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان** ﴾ ، والمراد بالكفار ها هنا المشركون .

وقوله : ﴿ **واتقوا الله إن كنتم مؤمنين** ﴾ ، أي : اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء – ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ بشرع الله الذي اتخذه هؤلاء هزوا ولعبا .

ويقول تعالى : ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾(٢٤٣) .

المحادون لله ورسوله ، يعني الذين هم في حدود الشرع في حد أي مجانبون للحق ، هم في ناحية والهدى في ناحية .

المؤمنون لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين

وقيل : انزلت هذه الآية : ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة بن الجراح ، حين قتل أباه يوم بدر ، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة رضي الله عنهم : ﴿ **ولو كان أبو عبيدة حيا لاستخلفته** ﴾(٢٤٤) .

وقيل في قوله : ﴿ **ولو كانوا آباءهم** ﴾ : نزلت في أبي عبيدة ، قتل أباه يوم بدر ، (أو أبناءهم) : في الصديق ، هم يومئذ بقتل ابنه عبدالرحمن ، (أو إخوانهم) : في مصعب بن عمير ، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ . (أو عشيرتهم) : في عمر ، قتل قريبا له يومئذ أيضا ، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث ، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه** ﴾ ، أي من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه ، فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان ، أي كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته .

وكتب في قلوبهم الإيمان : جعل في قلوبهم الإيمان .

وأيّدهم بروح منه : أي قوّاهم .

وفي قوله (رضي الله عنهم ورضوا عنه) : سر بديع ، وهو أنه لما سخطوا على القرائب ، والعشائر في الله عوضهم الله بالرضا عنهم ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، والفضل العميم . وقوله : ﴿ **أولئك حزب الله** ﴾ : أي هؤلاء حزب الله ، أي عباد الله وأهل كرامته .

وكتب أبو حازم الأعرج إلى الزهري : اعلم أن الجاه جاهان ، جاه يجريه الله على أيدي أوليائه لأوليائه ، وانهم الخامل ذكرهم ، الخفية شخوصهم ، ولقد جاءت صفتهم على لسان رسول الله ﷺ :

« **إن الله يحب الأخفياء** [أي المعتزل عن الناس] **الأتقياء الأبرياء ، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يُدْعَوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة** »(٢٤٥) .

توقيت الإيمان :

قال تعالى في سورة الأنعام :

﴿ **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون** ﴾ .

يتوعد الله الكافرين به ، والمخالفين رسله والمكذبين بآياته والصادين عن سبيله : ﴿ **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك** ﴾ ، وذلك كائن يوم القيامة . ﴿ **أو يأتي بعض آيات ربك** ﴾ . وذلك قبل يوم القيامة كائن

من امارات الساعة وأشراطها كما قال البخاري في تفسير هذه الآية .

؛ قال رسول الله ﷺ : « **لا تقوم الساعة حتى تطلعَ الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن من عليها ، فذلك حين ﴿ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾** .

؛ وقال النبي ﷺ : « **لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى بن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب . ونار تخرج من قعر عدن تسوق – أو تحشر – الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا** » .

برواية الإمام أحمد ، وهكذا رواه مسلم وأهل السنن الأربعة .

وقوله : **﴿ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾** أي : إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذٍ لا يقبل منه ، فأما من كان مؤمنا قبل ذلك ، فإن كان مصلحا في عمله فهو بخير عظيم ، وإن كان مخَلّطا فأحدث توبة حينئذٍ لم تقبل منه توبته . كما دلت عليه الأحاديث ، وعليه يحمل قوله تعالى : **﴿ أو كسبت في إيمانها خيرا ﴾** أي : ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملا به قبل ذلك .

وقوله **﴿ قل انتظروا أنا منتظرون ﴾** ، تهديد شديد للكافرين ، ووعيد أكيد لمن سوّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك ، وإنما كان الحكم هذا عند طلوع الشمس من مغربها ، لاقتراب وقت القيامة . وظهور أشراطها .

٢ – جزاء المؤمنين

خير البرية :

[عادة يكون الجزاء على قدر العمل والمنزلة ، ومنزلة المؤمن هي أنه خير البرية وهذه المنزلة مترتبة على يقينه القلبي وسلوكه الطيب الأمين الجسور تجاه نفسه وتجاه الآخرين من حوله] .

يقول تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية** ﴾(٢٤٦) .

أخبر تعالى عن حال الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بأبدانهم – بأنهم خير البرية .

وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء ، على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة ، لقوله : ﴿ **أولئك هم خير البرية** ﴾ .

ثم قال : ﴿ **جزاؤهم عند ربهم** ﴾ : أي : يوم القيامة ، ﴿ **جنات عدن تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا** ﴾ . أي بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ . ثم قال : (رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) .

ومقام رضاه تعالى عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم ، ورضوا عنه فيما منحهم من الفضل العميم ، وهذا الجزاء حاصل لمن خشى الله واتقاه حق تقواه ، وعبده كأنه يراه ، وعلم أنه ان لم يره فإنه يراه .

٤ وقال رسول الله ﷺ :
– ألا أخبركم بخير البرية ؟
قالوا : بلى يا رسول الله

قال : رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، كلما كانت هيعة [صيحة من العدو] استوى عليه . ألا أخبركم بخير البرية .

قالوا : بلى ، يا رسول الله .
قال : رجل في ثلة [أي جماعة] من غنمه ، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة .
ألا أخبركم بشر البرية ؟
قالوا : بلى .
قال : الذي يسأل بالله ، ولا يُعطي به(٢٤٧) .

الــود :

قال تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدًا** ﴾(٢٤٨) .

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، وهي الأعمال التي تُرضى الله عز وجل لمتابعتها الشريعة المحمدية – يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين مودة ، وهذا أمر لابد منه ، ولا محيد عنه . وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه .

٤ قال النبي ﷺ : « **إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال : يا جبريل ، اني أحب فلانا فأحبه .**
فيحبه جبريل .

ثم ينادي أهل السماء : ان الله يحب فلانا . فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض .
وان الله إذا أبغض عبدا دعا جبريل فقال :

يا جبريل ، اني أبغض فلانا فأبغضه . فيبغضه جبريل . ثم ينادي في أهل السماء : ان الله يبغض فلانا فأبغضوه ، فيبغضه أهل السماء ، ثم توضع له البغضاء في الأرض »(٢٤٩) .

وكان هَرِم بن حيان(٢٥٠) يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم .

يدافع الله عنهم :

يقول تعالى في سورة الحج :
﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾(٢٥١) .

يخبر تعالى أنه يدافع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار ، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم ، كما قال تعالى : ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾(٢٥٢) .

وقال : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شئ قدرا** ﴾(٢٥٣) .

وقوله : ﴿ **ان الله لا يحب كل خوان كفور** ﴾ أي لا يحب من عباده من اتصف بهذا وهو الخيانة في العهود والمواثيق ، لا يفي بما قال ، والكفر : الجحد للنعم ، فلا يعترف بها .

الجنة والرضوان :

يقول تعالى في سورة التوبة :
﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم** ﴾(٢٥٤) .

يخبرنا تعالى بما أعده للمؤمنين والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في جنات حسنة البناء ، طيبة القرار .

؛ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلنا :

– يا رسول الله ، حدثنا عن الجنة ، ما بناؤها ؟

قال : « **لبنة ذهب ، ولبنة فضة ، وملاطها [أي الطين الذي يملط به الحائط] المسك وحصباؤها [أي حصاها] اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران . من يدخلها ينعم لا ييأس ، ويخلد لا يموت ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه** »(٢٥٥) .

وقوله تعالى : ﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾ ، أي : رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم .

؛ قال النبي ﷺ : « **إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ،**

فيقولون : لبيك يا ربنا وسعَديك والخير في يديك

فيقول : هل رضيتم ؟

فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدا من خلقك

فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟

فيقولون : يا رب ، وأي شئ أفضل من ذلك ؟

فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا »(٢٥٦) .

تم بحمد الله

كشاف الآيات والأحاديث والأعلام

١ – ابن الأثير : مجد الدين أبو السعادات المبارك ، من علماء الدين واللغة أقام بالموصل وتوفى فيها ١٢١٠ م .

٢ – أبو اسحاق إبراهيم الزجاج ولد فى بغداد وتوفى عام ٩٢٣ م ، عالم بالنحو واللغة من مؤلفاته كتاب معانى القرآن .

٣ – أخرجه الشيخان .

٤ – ابن تيمية – كتاب الإيمان .

٥ – رواه أحمد .

٦ – رواه البخارى – ومتفق عليه .

٧ – متفق عليه .

رواه مسلم وغيره .

٩ – المؤمنون ٦ .

١٠ – الأنفال ٢ .

١١ – رواه البخارى .

١٢ – كتاب أبو الحسن الشاذلى .

١٣ – الحجرات ١٤ .

١٤ – متفق عليه .

١٥ – رواه مسلم .

١٦ – البقرة ٦٢ .

١٧ – محمد فريد وجدى – المصحف المفسر .

١٨ – ولد بشر فى « مرو » وسكن بغداد وتوفى بها عام ٢٢٧ هـ .

١٩ – بن مشيس : صوفى مغربى كبير تعلم على يديه أبو الحسن الشاذلى الذى توفى عام ٦٥٦ هـ .

٢٠ – التسترى : صوفى كبير ولد فى تستر (الأهواز) وتوفى منفيا بالبصرة عم ٢٨٣ هـ . له « تفسير القرآن العظيم » .

٢١ – ابن تيمية : عالم حنبلى مجدد ولد فى حرّان وأقام فى دمشق حيث توفى سجينا عام ٧٢٨ هـ .

٢٢ – الروم ٥٤ .

٢٣ – البقرة ٢٨ .

٢٤ – غافر ١١ .

٢٥ – البقرة ٢٦ .

٢٦ – الأعراف ١٠ ، ١١ .

٢٧ – الحجر ٢٨ ، ٢٩ .

٢٨ – المؤمنون ٧٨ .

٢٩ – إبراهيم ٣٤ .

٣٠ – ق ١٦ .

٣١ – الذاريات ٥٦ .

٣٢ – الفاتحة ٣ .

٣٣ – البقرة ١٨٦ .

٣٤ – النحل ١٢٨ .

٣٥ – طه ٤٦ .

٣٦ – التوبة ١٠٤ .

٣٧ – الزمر ٥٣ .

٣٨ – الرعد ٢٦ .

٣٩ – رواه مسلم وأحمد .

٤٠ – الأنفطار ٥ : ٨ .

٤١ – آل عمران ١٦٠ .

٤٢ – آل عمران ١٢٦ .

٤٣ – التوبة ١١١

٤٤ – يونس ١٠٠ .

٤٥ – فاطر ٨ .

٤٦ – البقرة ٢٧٢ .

٤٧ – القصص ٥٦ .

٤٨ – يونس ٩٩ .

٤٩ – هود ١١٨ -- ١١٩ .

٥٠ – الرعد ٣١ .

٥١ – النساء ٤٨ .

٥٢ – تفرد به أحمد .

٥٣ – أحمد والبخارى ومسلم .

٥٤ – لقمان ٢٠ .

٥٥ – التغابن ٢ .

٥٦ – البقرة ١٧٧ .

٥٧ – رواه ابن مَرْدُويه وهذا منقطع والله أعلم

٥٨ – الإنسان ٨ .

٥٩ – آل عمران ٩٣ .

٦٠ – الحشر ٩ .

٦١ – رواه أبو داود .

٦٢ – المؤمنون ١ – ١١ .

٦٣ – مسند الإمام أحمد .

٦٤ – عن أبى بكر بن أبى الدنيا .

٦٥ – الحشر ٩ .

٦٦ – مسند الإمام أحمد .

٦٧ – مسند الإمام أحمد .

٦٨ – الفرقان ٧٢ .

٦٩ – الشمس ٩ ، ١٠ .

٧٠ – فصلت ٦ ، ٧ .

٧١ – رواه البخارى .

٧٢ – ورد فى الصحيحين .

٧٣ – سنن ابن ماجة ومسند الإمام أحمد.

٧٤ – ورد فى الصحيحين .

٧٥ – البقرة ٣ .

٧٦ – التوبة ٦١ .

٧٧ – البقرة ٤ .

٧٨ – البقرة ٢١٨ .

٧٩ – الأنفال ٧٤ .

٨٠ – الأنفال ٧٢ .

٨١ – مسند الإمام أحمد .

٨٢ – الأنفال ٧٢ .

٨٣ – مروى عن ابن عباس .

٨٤ – الأعراف ٢٠٥ .

٨٥ – ق ٣٩ .

٨٦ – البقرة ١٨٦ .

٨٧ – الأنفال ٢ – ٤ .

٨٨ – تفسير الطبرى .

٨٩ – النازعات ٤ ، ٥ .

٩٠ – التوبة ٩ .

٩١ – أسد الغابة ٤١٤/١ .

٩٢ - أخرجه البخارى .
٩٣ - النساء ١٤٧ .
٩٤ - البقرة ١٧٢ .
٩٥ - لقمان ١٢ .
٩٦ - تفسير الطبرى .
٩٧ - الروم ١٤ .
٩٨ - النحل ١٢٠ ، ١٢١ .
٩٩ - النجم ٣٧ .
١٠٠ - الأنبياء ٥١ .
١٠١ - الاسراء ١٨ ، ١٩ .
١٠٢ - مسند الإمام أحمد .
١٠٣ - السجدة ١٥ : ١٧ .
١٠٤ - غافر ٦٠ .
١٠٥ - مسند الإمام أحمد ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجة .
١٠٦ - الفتح ٤ .
١٠٧ - البلد ١٧ ، ١٨ .
١٠٨ - سنن أبى داود وتحفة الأحوذى وقال الترمذى : « حسن صحيح » .
١٠٩ - الشورى ٢٣ .
١١٠ - مسند الإمام أحمد .
١١١ - مسند الإمام أحمد .
١١٢ - رواه الترمذى .
١١٣ - الأحزاب ٣٦ .
١١٤ - تفسير الطبرى .
١١٥ - النساء ٦٥ .
١١٦ - النور ٦٣ .
١١٧ - التوبة ٧١ .
١١٨ - آل عمران ١٠٤ .
١١٩ - الفرقان ٦٣ : ٦٧ .
١٢٠ - الاسراء ٣٧ .
١٢١ - رواه البخارى .
١٢٢ - القصص ٥٥ .
١٢٣ - رواه أحمد .
١٢٤ - مسند الإمام أحمد عن أنس .
١٢٥ - الاسراء ٢٩ .
١٢٦ - مسند الإمام أحمد عن أبى الدرداء.
١٢٧ - الفرقان ٦٨ .
١٢٨ - مسند الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود رواه الشيخان .
١٢٩ - الفرقان ٧٢ .
١٣٠ - الفرقان ٧٤ .
١٣١ - الاسراء ٢٣ ، ٢٤ .
١٣٢ - لقمان ١٤ .
١٣٣ - التوبة ١١٣ .
١٣٤ - مسند الإمام أحمد ورواه ابن داود وابن ماجه .
١٣٥ - الاسراء ٢٦ .
١٣٦ - رواه البخارى ومسلم .
١٣٧ - النساء ٣٦ .
١٣٨ - رواه أحمد وابن ماجة .
١٣٩ - رواه أحمد والبخارى ومسلم .
١٤٠ - رواه أحمد وابن ماجه .
١٤١ - رواه مسلم عن أبى هريرة .
١٤٢ - رواه البخارى ومسلم .
١٤٣ - الحجرات ١٠ .
١٤٤ - البخارى ومسلم وغيرهما .
١٤٥ - الحجرات ١١ .
١٤٦ - القلم ١١ .

١٤٧ - الحجرات ١٢ . ١٤٨ - رواه مالك والبخارى عن أبى هريرة.
١٤٩ - عن معاوية - رواية أبى داود . ١٥٠ - سنن أبى داود ، كتاب الأدب .
١٥١ - عن أبى هريرة - رواية أبى داود .
١٥٢ - رواه البخارى وأبو داود - كتاب الأدب .
١٥٣ - رواه مسلم وأبو داود - والنسائى .
١٥٤ - رواه البخارى ومسلم وغيرهما (كتاب العلم) .
١٥٥ - رواه أبو داود . ١٥٦ - رواه أبو داود .
١٥٧ - المائدة ٩٠ ، ٩١ .
١٥٨ - رواه مالك وأحمد وأبو داود وابن ماجه .
١٥٩ - رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى .
١٦٠ - رواه البخارى ومسلم . ١٦١ - رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه .
١٦٢ - رواه مسلم - عن ابن عمر . ١٦٣ - رواه أحمد .
١٦٤ - رواه البخارى ومسلم وغيرهما . ١٦٥ - آل عمران ١٩٠ .
١٦٦ - الجاثية ٣/٧ . ١٦٧ - النحل ٧٩ .
١٦٨ - النحل ٥/٧ . ١٦٩ - رواه مسلم والبخارى .
١٧٠ - الأعراف ٥٤ . ١٧١ - الزمر ٥٢
١٧٢ - سورة العصر . ١٧٣ - النور ٥٢ .
١٧٤ - البقرة ٢٥٧ . ١٧٥ - الأنعام ١٥٣ .
١٧٦ - آل عمران ١٠٤ .
١٧٧ - هو أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الباقر (٥٦ - ١١٤ هـ) كان من فقهاء المدينة ، والباقر إشارة إلى شق العلم ومعرفة خوافيه .
١٧٨ - رواه أبو هريرة - صحيح مسلم .
١٧٩ - عن حذيفة بن اليمان - مسند الإمام أحمد .
١٨٠ - آل عمران ١١٠ . ١٨١ - مسند الإمام أحمد .
١٨٢ - البقرة ١٤٣ . ١٨٣ - مسند أحمد .
١٨٤ - مسند أحمد .
١٨٥ - عبدالله بن مسعود من أوائل المسلمين ، ومن أصحاب الهجرتين . محدث فقيه ، كتب بيده مصحف ابن مسعود اثنى النبي عليه في قراءته القرآن . وقف إلى جوار أبي بكر في حروب الردة .
١٨٦ - ورد في الصحيحين . ١٨٧ - آل عمران ١١٨ .
١٨٨ - رواه البخاري والنسائي وغيرهما .١٨٩ - آل عمران ١٣٠ .

١٩٠ – مسند أحمد .
١٩١ – روى مرفوعا عن البزاز من حديث أبي هريرة .
١٩٢ – رواه مسلم وأحمد .. عن أبي هريرة .
١٩٣ – مسند أحمد . ١٩٤ – مسند أحمد .
١٩٥ – مسند أحمد . ١٩٦ – رواه مسلم .
١٩٧ – مسند أحمد .
١٩٨ – رواه أبو يعلي وأبو داود والترمذي والبزار .
١٩٩ – التوبة ١٠٤ . ٢٠٠ – النساء ١١٠ .
٢٠١ – النساء ٧٧ ، ٧٨ .
٢٠٢ – زهير شاهر جاهلي اشتهر بحولياته ومعلقته . له ديوان شعر توفي عام ٦٠٩ م .
٢٠٣ – الرحمن ٢٦ . ٢٠٤ – الأنبياء ٣٥ .
٢٠٥ – الأنبياء ٣٤ . ٢٠٦ – الأعراف ١٣١ .
٢٠٧ – الحج ١١ . ٢٠٨ – طه ١١٢ .
٢٠٩ – النور ٥٥ .
٢١٠ – رواه مسلم – كتاب الامارة ، والبخاري .
٢١١ – رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي .
٢١٢ – الأعراف ١٢٩ . ٢١٣ – القصص ٥ ، ٦ .
٢١٤ – رواه البخاري (كتاب المناقب) – والإمام أحمد .
٢١٥ – رواه أحمد . ٢١٦ – الحجرات ٩ ، ١٠ .
٢١٧ – رواه البخاري – كتاب الصلح .٢١٨ – البخاري – كتاب المظالم ومسلم.
٢١٩ – رواه أحمد . ٢٢٠ – رواه ابن أبي حاتم والنسائي .
٢٢١ – رواه مسلم والنسائي . ٢٢٢ – رواه مسلم وغيره .
٢٢٣ – رواه مسلم وغيره . ٢٢٤ – رواه البخاري ومسلم وغيرهما .
٢٢٥ – النساء ٩٢ ، ٩٣ .
٢٢٦ – صحيح مسلم . كتاب الإيمان – وأحمد .
٢٢٧ – مسند أحمد . ٢٢٨ – مسند أحمد .
٢٢٩ – ورد في الصحيحين . ٢٣٠ – رواه ابن ماجة – كتاب الديات .
٢٣١ – مسند أحمد . ٢٣٢ – مسند أحمد .
٢٣٣ – الفرقان ٦٨ . ٢٣٤ – الزمر ٥٣ .
٢٣٥ – النساء ٤٨ . ٢٣٦ – صحيح مسلم .
٢٣٧ – البخاري . ٢٣٨ – النساء ١٤٤ .

٢٣٩ – آل عمران ٢٨ . ٢٤٠ – المائدة ٥١ .
٢٤١ – رواه ابن جرير تفسير الطبري . ٢٤٢ – المائدة ٥٧ .
٢٤٣ – المجادلة ٢٢ . ٢٤٤ – أسد الغابة ١٢٨/٣ .
٢٤٥ – أخرجه ابن ماجة في كتاب الفتن . ٢٤٦ – البينة ٧ .
٢٤٧ – مسند أحمد . ٢٤٨ – مريم ٩٦ .
٢٤٩ – رواه أحمد ومسلم والبخاري . ٢٥٠ – من صغار الصحابة .
٢٥١ – الحج ٣٨ . ٢٥٢ – الزمر ٣٦ .
٢٥٣ – الطلاق ٣ . ٢٥٤ – التوبة ٧٢ .
٢٥٥ – مسند أحمد . ٢٥٦ – أخرجه البخاري ومسلم ومالك .

كتب للمؤلف

النبي باسما (٨٤)
النبي مبشراً (٨٤)
النبي زوجاً (٨٦)
الأحاديث القدسية (٨٤)
المختار من أحاديث المختار (٨٦)
أخبار الجنة والنار (٨٧)
الغذاء والدواء في القرآن والسنة
كيف تكون مؤمنا (٨٨)

كتابات للأطفال :

تسالي الليالي للطفل المسلم ٧ أجزاء (٨٤ – ٨٨)

دراسات أدبية :

صلاح عبدالصبور الشاعر والإنسان

شعر :

النزهة بين شرائح اللهب (٧٩)
القلب والوطن (٨٧)

دراسات اجتماعية :

الرشوة داء العصر

الفهرس

الموضوع	الصفحة
إهداء	٧
المقدمة	٩
تمهيد	١٣
الباب الأول	
« صلة الله بعباده وضرورة الإيمان »	
الله الخالق	٢٣
الله الرحمن الرحيم	٢٧
مشيئة الله فى خلقه	٢٩
الإيمان والإثم العظيم	٣٠
الباب الثانى	
« الطريق إلى الإيمان »	
من صفات المؤمنين	٣٥
نوافذ الإيمان	٧٣
الباب الثالث	
« أحوال المؤمنين »	
صور من حياة المؤمنين	٨٣
جزاء المؤمنين	١١٥
كشاف الأيات والأحاديث والأعلام	١١٩

رقم الإيداع ٢٢٥٨/٨٨

الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧-١٠٦-٠١٤-٧